الدكتور أسعد السحمراني

التصوف

منشؤه ومصطلحاته

دار النفائس

التصوف
منشؤه ومصطلحاته

بسم الله الرحمن الرحيم

التصوف
منشؤه ومصطلحاته

تأليف

الدكتور أسعد السحمراني

أستاذ فلسفة في جامعة بيروت العربية
وكلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

دار النفائس

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية صفي الدين
ص. ب ٦٣٤٧/ ١١ أو ٥١٥٢/ ١٤
برقياً: دانفايكو ـ ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ
نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ
يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ
مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن
نَّصِيبٍ

(سورة الشورى الآية ٢٠)

الإهداء

إلى كل مؤمن يقف على ثغرٍ من الثغور مجاهداً ،

إلى الذين يلتزمون بالحديث الشريف :

« إن الرهبانية لم تكتب علينا»[1]

إلى أولياء الله الصالحين الذين يواجهون البدع والمزاعم الدخيلة ،

أهدي عملي هذا .

أسعد السحمراني

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده .

المقدمة

يُدفع المسلم للاهتمام بالتصوف ، ومحاولة التعرف على حقيقة نشأته ، ومصطلحاته المتنوعة ، لأنّه منذ طفولته يرى ويسمع في كل حيّ ومحلة كلاماً عن هذا الموضوع في منحى سلبي أو إيجابي ، حيث لا يدور نقاش إلا ويتعقّد ، وتتلبّد الأجواء بين معجب بكرامات شيخه التي قد تكون صادقة ، وقد تكون ضروباً من الرياء ، أو السحر ، أو التلبيسات الشيطانية ، وبين منكر للإكثار من الحديث عن مثل هذه الأمور ، حتى لو كانت صادقة ، لأن الكرامة خاصة بصاحبها ومن شروطها الكتمان .

ويصل الأمر أحياناً أن أتباع المشايخ من الجهلة الذين يتجاوزون في حبّه واحترامه حدود ما هو مقبول شرعاً ، ينفعلون ويتعصبون لشيخهم ، ويدّعون غالباً أنه قطب الزمان ولا أحد بمستواه في عصره فيردّ عليهم أتباع شيخ آخر بالمنطق نفسه ، ويصبح كل حزب بما لديهم فرحين فيقودهم تعصّبهم إلى الفرقة ، وتنتشر الفتن بسبب ذلك مما يسهّل على أعداء الله وأعداء الإسلام ، وعلى كل ظالم وطاغية استغلال هذه الأجواء بتغذية الفتنة ، وتغليب فريق على آخر حيث يصبح همُّ كل فرقة المكر لفرقة تضاهيها في نشر التلبيسات ، وأنواع الضلالات ، وبهذا الشكل كانت وما زالت ـ كما نلاحظ اليوم ـ

معظم الطرق مدعاة للانقسامات الداخلية ، والصراعات غير المجدية .

يؤلمك كثيراً ما تراه مثلاً في مجلس ذكر ، أو تشييع جنازة ، عندما يحضر شيخان أو سالكان أو مريدان وتبدأ المبارزة بمزاعم لا يمكن أن يقبلها الإسلام ، أو أن تندرج في باب الكرامات التي لا تكون إلا لتوليد الاطمئنان عند من كانت له ، أو لحاجة عند المسلمين ، أو حجة ضد مشككين أو معادين ، وكل ما تراه أظنه لا يدخل في هذا الباب . ناهيك عن ادّعاء التأويل ، والتعبير الرمزي بكلام غير مفهوم يذكرك بلعب السحر التي يمارسها بعض المهرجين الذين كنا نعجب بخفتهم أطفالاً عندما كان يتحلّق الناس حولهم في الساحات العامة وهم يمارسون بعض ألعاب السحر .

ويزيد في إزعاجك تفرّغ بعض الأفراد ممن ليس عندهم علم ينتفع به ، ولا رباط على ثغر يقاتلون فيه مدافعين ، بل يدّعون الانقطاع عن الدنيا وهجرها فيخلطون الزهد بالتخاذل ، وطلب الآخرة بالتواكل ، ليكونوا عالة على المجتمع يتلقّون الزكاة والصدقات ويسألون الناس ، وحبّذا لو عرف هؤلاء أن العمل والكسب سنّة الحياة ، وأن الأنبياء كانوا يعملون لتوفير معاشهم ، وفوق ذلك يا ليتهم علموا أن النبي ﷺ وآله وصحبه الأولين لم يأكلوا من مال كان من زكاة أو صدقة ، وقبلوا الهدية لا غير .

ومما تجدر الاشارة إليه أن التصوف في تاريخه المتقدم بعد النشأة عرف مؤثرات دخيلة من العقائد الفاسدة ، والفلسفات الدخيلة ، زادت في حالة الانحراف عند بعض الطرقيين . واتباع

الطرق يكثرون في الظروف الصعبة التي تمر فيها أي بلد ، حيث يجد بعض المتخاذلين في حالة الهروب إلى التلهّي مع شيخ مضلّ ما يبرر لهم عدم قوة عزيمتهم في الجهاد ، هذا مع العلم أن أهل الصفة في عصر النبي ﷺ وصفهم بأنهم : فرسان النهار رهبان الليل .

والزوايا في العهود الأولى لم تكن تكايا لهجر الدنيا ، وإنما كانت رباطات يقيم فيها المجاهدون للدفاع عن الثغور ، وقد تلحق بها المزارع والحرف لتصنع ما يحتاجه المقيمون فيها ، من مثل ذلك رباط عبادان قرب البصرة ، ورباط المنستير في تونس وغيرها .

من المعلوم أن طرقاً ورباطات كان لها فضل غير خافٍ في نشر الإسلام وفي مقاومة الاستعمار ، ولم تكن كتلك التي تزعم ما لم يقبله الإسلام كالتبتل ، والقعود عن الكسب ، وقهر النفس . ولعل كل مسلم قد عرف ما جرى لثلاثة مبالغين مغالين في سلوكهم باسم الزهد وفدوا إلى النبي ﷺ وقال له أحدهم : أنا أقوم ولا أنام . والثاني : أنا أصوم وأصل ولا أفطر . والثالث قال : وأنا أعتزل النساء ولا أرغب بالزواج . بعد ذلك رد عليهم النبي ﷺ بحديثه المشهور : « إنني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منّي » .

لا أريد الإطالة في هذه المقدمة ، وسأترك القارىء مع ما يلي على صفحات هذا العمل الذي أعدّه مجرد محاولة توخيت فيها ما استطعت الموضوعية في تحديد المواقف ، تلك الموضوعية التي تنطلق من مراعاة الالتزام بأحكام الشريعة في ما حدّدت من مواقف .

وأحب أن أوضح أنّ حالاً من الاضطراب انتابتني ، وأنا أجمع

مادة هذا الكتاب ، وعندما بدأت أخط صفحاته ، لأنني وجدت فيه من المـواقف المتناقضـة ما لم أطلع عليـه في أية مـادة أخرى من موضوعات الدراسات الإسلامية ، ولذلك طال الوقت الفاصـل بين جمع المادة والبدء بالكتابة نسبيـاً ، لكن في النهايـة وجدت نفسي مدفوعاً لكي أقوم بمحاولتي هذه ولا أبتغي سوى مرضاة الله تعالى ، والالتزام بما جاءنا به الصادق الأمين محمد ﷺ . وإنني أعلم سلفاً أن بعض ما طرحت قد يسرّ أناساً ، ويغضب آخرين ، ولكنني ألتمس العذر ممن لن يسروا بما كتبت ، وأذكرهم بقول طريف للفيلسوف اليـوناني أرسـطو فيه : إننـا نحب أفلاطـون ، ونحب الحق ، وإذا اختلفا فإننا نقدم الحق على أفلاطون لأنه أولى بالحب . وأذكر قولاً في الأثر الإسلامي : الحق يعرف بالحق ولا يعرف الحق بالرجال .

حاولت في هذه الصفحات أن أضع إشارات على طريق بحث موضوع التصوف بأسلوب معتدل موضوعي بعيداً عن الحماس معترفاً أن أي كاتب لا يحقّ له أن يدّعي بأن جهد إنسان فرد يستطيع أن يجمع بين دفتي كتاب كل ما يتعلق بالتصوف حتى لو كان ذلك مـوسوعـة وليس كتاباً .

وفي الختـام أرجو الله تعـالى أن يتقبّل عملي خـالصاً لـوجهه الكريم ، وأن يشرح صدري لما فيه الخير وهو تعالى أعلم بالقصد إنه نعم المجيب .

في ٢٨ جمادى الأولى ١٤٠٧هـ
الموافق فيه ٢٨ كانون الثاني ١٩٨٧م
أسعد السحمراني

الفصل الأول

التسمية والتعريف

- التسمية
- التعريف والمصطلح





التسمية

تعدّدت المواقف عند مؤرخي الفكر الإسلامي في حقيقة المصدر الذي اشتُقت منه كلمة صوفية ، وتصوف ، فعزوا التسمية إلى مصادر أربعة هي :

أ ـ الصّفّة : وهي فناء ملحق بمسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنوّرة. وسبب اشتهارها هو انتساب بعض المسلمين في عصر النبي ﷺ إليها عُرفوا بأهل الصفة . وهؤلاء جماعة فقراء أخرجوا من ديارهم لامال لهم ، ولا منازل ، ولا عائلات ، أذن لهم النبي ﷺ أن يقيموا في ظلال مسجده منقطعين للعبادة وللجهاد في سبيل الله باللسان والسيف ، وقد امتاز أهل الصفة بالزهد والإعراض عن الدنيا ، ومما جاء في القرآن الكريم عنهم وعن أمثالهم قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(1) .

وأهل الصفة كانوا يكثرون ويقلّون فلم يكونوا قوماً بعينهم ، بل كل قاصد للمدينة لا مأوى له من المسلمين كان يقيم في الصفة ، ولكن بعضهم كان يقيم بشكل ثابت منهم : أبو ذر الغفاري ، أبو

---

(1) سورة الأنعام ، آية ٥٢ .

موسى الأشعري ، سلمان الفارسي وغيرهم . ووصل عدد أهل الصفة في بعض الأحيان إلى ثلاثمائة ؛ وربما أربعمائة أحياناً .

كان الرسول ﷺ يهتم بهم ويواسيهم ، ويحث المسلمين على رعايتهم فإذا ما جاء وقت وجبة طعام تراه يوزّعهم على أصحاب السعة ، كلّ حسب استطاعته ، هذا ثلاثة والآخر أربعة أو خمسة وهكذا . . الخ . فأهل الصفة كانوا يأكلون من الصدقات ، ويلبسون ثوباً واحداً لا يملكون سواه وغالباً ما كان هذا الثوب من الصوف .

سمّي أهل الصّفة بالغرباء أيضاً لخروجهم من ديارهم . وحالهم دفعت بعض أعيان المسلمين ، وبعض المؤلفة قلوبهم إلى أن يطلبوا من النبي ﷺ إبعاد أهل الصّفة عن مجلسه عندما يجلسون إليه فهم لا يرغبون بمجالسة قوم فقراء ، ربما خرجت رائحة الضأن من ثيابهم ، وفي ذلك كان الخطاب الإلّهي للنبي ﷺ : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(١) .

فَكَانَ قول النبي ﷺ بعد هذه الآية : الحمد للّه الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات .

واشتهر عنه أنه إذا صافح أحدهم لا ينزع يده من يده حتى يبدأ

---

(١) سورة الكهف ، آية ٢٨ .

ذلك واحدهم ، وإذا جالسهم لا يقوم من مجلسهم حتى يغادروا هم تكريماً لهم .

أمـا عن اشتقاق المصـطلح فـإن النسبـة إلى صفَّـة : صُفّي ، وليست «صوفي » ، ولكن مع ذلـك لا يمكن إلغاء أثـر سلوك أهل الصفة وزهدهم في تحديد منهـاج الحياة عنـد الصوفيـة في عصور لاحقة ، بل ربما كانت حياتهم القائمة على الجهاد والزهد نموذجاً يحتذى عند من أتى بعدهم .

ب ـ **الصوفة** : في « لسان العرب لابن المنظور » الصوفة : كـل من ولي شيئاً من عمـل البيت الحـرام قبـل الإسـلام ، وهم الصوفانة .

وصوفة «أبو حي» من مُضر ، وهو الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة بن الياس بن مُضر ؛ كانوا يقومون على خدمة الكعبـة في الجاهليـة ، ويجيزون الحاج ؛ أي يفيضـون بهم . ويقال في الحـجّ : أجيزي صوفة ، فإذا أجازت قيل : أجيزي خِنْدِف ، فإذا أجازت أذن للناس كلّهم في الإجـازة ، وهي الإفاضـة ، وفيهم يقول أوس بن مغـراء السّعدي :

ولا يريمون في التعريف موقفهم   حتى يقـال: أجيزوا آل صـوفانا

وقيل عند بعضهم : صوفة قبيلة اجتمعت من أفناء قبائل .

إن احتمال أخذ التسمية من هذا القبيل ضعيف ومردود . فصوفة خدم الكعبة في الجاهلية لم يكونوا مشهورين معروفين ، وإلا كان الأحـرى أن ينتسب إليهم زهاد عهـد النبوّة ، ومنهم أهـل الصّفة . يضاف إلى ذلك أنه من غير المنطقي أن يعود الصـوفيون بـاشتقاق

تسميتهم إلى قبيلة جاهلية كانت تخدم الكعبة يوم كانت تعبد فيها الأوثان ، لذا من الأفضل أن نسقط احتمال أخذ التسمية من هذا المصدر من حسابنا .

جـ ـ الصوف: يميل غير واحد إلى إرجاع التسمية إلى المظهر ، وهو لبس الصوف الذي اعتمده عدد كبير من الزهاد قياساً على تسمية « حواريين » اشتقاقاً من لبس الثياب البيضاء . وقد يكتفي الصوفي بلبس المرقعة من الصوف وليس كامل الثوب ، بأن يأخذ رقعة يلفّ بها عمامته ، وكانت كل طريقة صوفية تعتمد لوناً معيناً في مرقعتها يميّزها عن سواها . .

ومع أن الاشتقاق من صوف «صوفي» سليم لغوياً إلاّ أن ارتداء الصوف ليس قاعدة عند كل الصوفيين حيث نرى بعضهم كان يعدّ ذلك ادّعاء مستنداً على المظهر ، والأَوْلى بالصوفي صقل الباطن وإهمال الظاهر ، فهذا بشر بن الحارث الحافي يهاجم من يلبس الصوف ، ويقلع عن ارتدائه ، ويرغب في القطن لباساً له .

لكن هذا لا يمنع الجانب الرمزي في لبس الصوف لجهة اعتماد خشن الملبس وعدم الاهتمام بالمظهر عند الصوفيين ، واعتبار الصوف رمزاً للخشونة ، وليس بالضرورة لبس الصوف بعينه .

والوجه الآخر للموضوع مع الصوف ربما كان سببه الغنم الذي يكسوه الصوف ، حيث ترسخت للغنم صورة توحي بالتفاؤل في التراث الشعبي لكثير من الأمم . والدافع لذلك هو أن كثيراً من الأنبياء والرسل عليهم السلام قد قاموا برعي الغنم في بعض

مراحل عمرهم[1] ، هذا إضافة إلى مسألة الفداء بالكبش للنبي إسماعيل عليه السلام .

د ـ **الصفاء والصف** : يرغب أغلب الصوفيين ردّ اشتقاق التسمية ، ونسبتها إلى صفاء القلوب ونقاء أسرارها . وممن قالوا بهذا المفهوم بشر بن الحارث الحافي : « الصوفي من صفا قلبه للّه » . ورغم أن الاشتقاق اللغوي من صفاء ليس « صوفي » ، إلا أن الصوفيين ربطوا التصوف بصفاء القلب والنفس لأنّ صفاء القلب لذكر الله تعالى هو سموّ روحي عمل النبي ﷺ على تعزيزه في قلوب أصحابه ، فالصفاء يدلّل على اليقين .

واليقين من يقن الماء في الحوض ؛ أي استقرّ وصفا ، وفي ذلك إشارة إلى حصول الاطمئنان في قلب المتصوف ، واستقرار الإيمان مما يدلّل على زوال الشكّ من نفسه وكذلك التردّد والظنون والأوهام .

والصفاء يؤدي إلى الصف ، فمن صفت قلوبهم للّه تعالى يكرّمهم ويصطفيهم فيصبحون في الصف الأوّل عنده يقدّمهم على سواهم . وهنا نلاحظ عدم سلامة الاشتقاق اللغوي من صفاء وصف ، فالنسبة من صف هي صَفّي . ومن صفاء : صفاوي . ولكن اعتماد الصوفية على صفاء القلب الذي يعقبه الاصطفاء غير بعيد لأن المنهج الصوفي ليس مادياً ولا عقلانياً بحتاً ، وإنما يأخذ منهما مع تركيزه على القلب والروحانية . فالتصوف منهج روحي وجداني يقوم

---

(١) في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنّه قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت . قال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

على مجاهدة النفس للأهواء ، وعلى تذوّق حلاوة البعد الروحي في العبادة ، وهو الـذي يحقّق حالاً من اليقين والاطمئنـان لا تأتي من طريق الإشباع المادي بل من طريق الفؤاد وصفاء السرائر .

لذلك كانت المسؤولية في التكاليف الشرعية للإنسان لـيس عمّا يخالج عقله فقط ، أو ما تؤديه حواسّه ، وإنما الفؤاد معني بالتكليف أيضاً . هذا الأمر نستفيده من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾[1] . ومسؤولية الفؤاد هي تزكية النفس وصفاؤها من كل ما يشينها .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٣٦ .

التعريف والمصطلح

لا يستطيع الباحث في تاريخ الصوفية أن يظفر بتعريف جامع مانع للتصوّف ، والتعريف عند كثير منهم لا ينفصل عن اشتقاق التسمية ، فالأمران متداخلان . تحمل لنا المصادر أن كلمة صوفي أطلقت لقباً لأول مرة في التاريخ الإسلامي في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة على أبي هاشم الزاهد البغدادي ، وعلى الكيميائي الشهير جابر بن حيان الكوفي .

قد يكون غير مجدٍ أن نغرق في مناقشة مستفيضة عن البلد الذي أُطلقت فيه كلمة « صوفية » لقباً على بعض الناس ، وإنما المهم أن نعلم بأنها اصطلاح حادث عند المسلمين في القرن الثاني للهجرة كما ذكرنا ، وقبل هذا التاريخ كانت تستخدم صفة « زاهد » لمن لُقِّبوا فيما بعد بالصوفيين .

والتعليل لذلك عند بعضهم أن الزهد ، وعدم التعلّق بالدنيا ، والسعي لتزكية النفس مع عدم المبالغة بمطالب البدن ، كان سلوكاً شبه عامٍ عند الصحابة والتابعين ، ولكن مع توسّع الفتوحات مال بعض المسلمين إلى الدنيا فأخذت منهم كل مأخذ مما حدا بالزهاد أن يميّزوا أنفسهم عن سائر الأمة بتسمية خاصة هي : الصوفية .

بعد هذا التاريخ أخذت التسمية تتبلور سلوكاً خاصاً يطمح فيه صاحبه إلى الظفر بلقب « ولي » ، ولذا كان في التصوف ثمة اهتمام بالنوافل في العبادات سعياً للحصول على مرتبة القرب من الله تعالى . والسلوك الصوفي يقوم على فرضية مفادها « أنّ الإنسان مركّب من عالمين : عالم الجسم وعالم الروح . هذا البدن الكثيف أي الجسم ينتمي إلى عالمنا هذا . . . أما الروح فلا تنتمي إلى هذا العالم ولا تمتّ إليه بسبب ، هي غريبة عن هذا العالم المادي . . . فليس الطريق الصوفي بما فيه من رياضات ومجاهدات إلّا لكسر كثافة هذا الجسم وخلخلة قضبان هذا الجسم لكي تنطلق الروح إلى ملكوتها »(١) .

يشكّل حديث الولاية ، وهو حديث قدسي منطلقاً هاماً عند الصوفيين في تنظيم طرقهم ، وفيه : « من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينّه ، ولئن استعاذني لأعيذنّه ، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس عبدي المؤمن : يكره الموت ، وأكره إساءته »(٢) .

إذا ما حاولنا تلمس معنى حديث الولاية يمكننا القول : إن الولي هو من أدّى حقوق الله تعالى ، وحقوق العباد كاملة ، وزاد عليها

---

(١) خليف ، د . فتح الله ، محاضرات في الفلسفة الإسلامية ، بيروت ـ مكتب كريدية ، سنة ١٩٧٥ ، ص ٧ .

(٢) رواه البخاري .

طاعات ونوافل ، وكان في كل أفعاله وجوارحه مشغولاً بالعبادة فلا يصغي بسمعه إلّا إلى ما يرضي الله تعالى ، ولا يرى ببصره إلا ما أمره به . . . أي يكون العبد في مرتبة الإحسان التي حدّدها النبي ﷺ في حديث متفق عليه ، عندما سئل : ما الإحسان يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « الإحسان أن تعبد اللّه كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك » .

والولي الذي تحققت له مرتبة الولاية لبلوغه الإحسان ، يصبح في رعاية الله تعالى ، وتكون أعماله بتوفيقه تعالى ، فيحفظه الله من فعل ما يكرهه سبحانه ، فتنضبط جوارحه عن كل أنواع المخالفات فلا تنظر عينه إلى ما نهى عنه الله ، ولا تطال يده ما لا يحلّ له ، ولا تسعى رجله إلى باطل ، فالعبد المقرّب محفوظ لأن الله تعالى قد أحبّه ، وبالتالي لا يصدر عنه تصرّف إلا وفق ما يرضي الباري عزّ وجلّ .

استناداً إلى هذا المفهوم نقول إنّ « أولياء الله هم المؤمنون المتقون ، سواء سمّي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك »(١) . وعن هذا المدلول للولاية جاء قول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾(٢) .

---

(١) ابن تيمية ، أحمد ، كتاب التصوف (في مجموع فتاوى ابن تيمية ، م ١١) ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الرباط ـ المغرب)، مكتبة المعارف ، بدون تاريخ ، ص ٢٢ .

(٢) سورة يونس ، آية ٦٢ ـ ٦٣ .

فالولاية عمل وجهد والتزام ، وليست مظاهر معينة . فأولياء الله يتميّزون عن غيرهم بتقواهم ، وقوة عزيمتهم على الجهاد في سبيل الله بصرف النظر عن الموقع والثغر الذي يقفون عليه . فالمظاهر لا قيمة لها إن لم يمتاز صاحبها بصفاء الروح ونقاء السريرة . عن هذه الناحية في تحديد الولاية قال ابن تيمية : « ليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور والمباحات ، فلا يتميّزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ضفره إذا كان مباحاً ، كما قيل : كم من صدّيق في قباء ، وكم من زنديق في عباء . بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ، ويوجدون في التجار والصناع والزراع »[1] .

لا تنحصر الولاية في فريق من المسلمين دون غيرهم ، وإنما تشمل كل مؤمن مجاهد في الله ينافس في فعل الخير ، ويكون السبّاق إليه ، ويدعم وجهة النظر هذه أنه في صدر الإسلام ، لم يكن المسلمون منتسبين لطرق صوفية فهل هذا يعني أنّه ليس بينهم من هو من أولياء الله الصالحين ؟ .

لقد جاء في هذا الباب قول الله تعالى يقسم المسلمين ثلاثة أنواع : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ

---

(١) ابن تيمية ، أحمد ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، تصحيح وتعليق محمود عبد الوهاب فايد ، القاهرة ، دار العلم للجميع ، بدون تاريخ ، ص ٥٧ .

لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[1] .

اصطفينا أي اخترنا ، وهي مشتقة من الصفو ، والصفو في لغة العرب هو الخلوص من شوائب الكدر . والأصل : اصطفونا . وإعادة مصطلح الصوفية إلى الصفو والاصطفاء مردّه عند الصوفيين هذه الآية الكريمة . وفي تفسير الآية عند بعضهم اعتُمِد المنحى الصوفي فقال الانطاكي : الظالم صاحب الأقوال ، والمقتصد صاحب الأفعال ، والسابق صاحب الأحوال . وقال ابن عطاء : الظالم الذي يحبّ اللّه من أجل الدنيا ، والمقتصد الذي يحبّه من أجل العقبى ، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق .

وقيل أيضاً : الظالم الذي يعبد الله خوفاً من النار ، والمقتصد الذي يعبد الله طمعاً في الجنة ، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب .

وقيل : الظالم من استغنى بماله ، والمقتصد من استغنى بدينه ، والسابق من استغنى بربه[2] .

هؤلاء المختارون في أحوالهم الثلاثة هم ممن التزموا تنفيذ أوامر الله وانتهوا عمّا نهى عنه ، ولم يقع واحدهم في كبيرة ، ولا تعدّوا حدود الله تعالى ، وبذلك استحقوا أن يكونوا من أولياء الله .

---

(١) سورة فاطر ، آية ٣٢ .

(٢) يراجع : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٤ ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٦ وما بعدها .

إنّ « أولياء اللّه المتقون هم الـذين فعلوا المأمـور ، وتـركـوا المحظور ، وصبروا على المقدور ، فأحبّهم وأحبّـوه ورضي عنهم ورضوا عنه . وأعداؤه أولياء الشيـطان وإن كانـوا تحت قدرتـه فهو يبغضهم ، ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم »(١) .

بعد تبسيط معنى الولاية هل يصح حصرهـا بالصـوفيين ؟ في الحقيقة لا يمكن تصنيف الصوفيين بشكل إجمالي وعشوائي ، فبين الصـوفيين الصادق المستقيم السلوك وهـو بين من اصـطفـاهم اللّه تعالى ، ومنهم الذي أخذ من الصوفية مظاهر وتقاليد أراد بها إخفاء حقيقة ما تكنّه نفسه من مكائد ، أو نوازع تتنافى مع الإسلام الحق ، ولذا نرى أن بعض من انتسبوا إلى التصوف قد أساءوا له وللإسلام ، ونجح الشيطان باستدراجهم إلى دائرته عندما اغتروا بالمظهر وأهملوا الجوهر .

ولقد أنصفهم ابن تيمية عندما قال : « الصواب أنّهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرّب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين . وفي كلّ من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتـوب . ومن المنتسبين إليهم من هو ظـالم لنفسه ، عـاصٍ لربّه »(٢) .

إن الولاية علاقة خاصة بين العبد وربّه لا مبرّر للتباهي بها ، أو

---

(١) ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن واولياء الشيطان ، م . س ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن تيمية ، كتاب التصوف ، م . س ، ص ١٨ .

التبجح . والولي في غالب الأحيان لا يعرف نفسه . والهمّ الأساسي عنده الاتجاه إلى النفس ، والعمل على صقلها ، والرقي بها حتى يحقق صاحب هذه النفس الفلاح ، يقوم بواجبه وتبقى مسألة الاصطفاء والولاية للإرادة الإلهية فلا دخل للإنسان بها .

والنفس هي العنصر الأساسي في الإنسان المركّب من نفس وبدن ، وهو مسؤول عن تعديلها وتسويتها بالتربية ، ولهذه الأهمية استخدمت قسماً قبل المطالبة بتزكيتها توخياً للفلاح ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاها * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[1] والخسران هنا أيضاً سببه النفس إذا ما طوى الإنسان قدراتها ، ولم يعمل على صقلها وتزكيتها بالإيمان والعلم والعبادة ، حتى تأخذ طريقها إلى نور يقذفه الله فيها ، فيكشف عن بصيرة الإنسان ، وتصبح كل أعماله بتوفيق الله .
إن الصوفيين وسواهم من المسلمين أعطوا للنفس والتربية حيّزاً رئيساً في إصلاح الفرد تمهيداً لإصلاح الجماعة ، لأن النفس هي سبيل الفلاح ، وعامل التغيير والنهوض ، وهي مفتاح طريق الولاية والصلاح ، أو أنها تكون مدعاة للاستدراج الشيطاني ، وسبباً في أن يُفتن الإنسان .

إنّ من أصلح نفسه وزكّاها بسلامة الالتزام بالإسلام يتحقق له طلبه الذي هو غاية كل من سلك طريقاً يبغي به مرضاة الله تعالى ، ويطمح فيه لأن يصبح من أولياء الله من خلال تلبية دعائه : ﴿ رَبِّ

---

(١) سورة الشمس ، الآيات ٧ ، ٨، ٩، ١٠ .

اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾[1] وإذا دخل العبد دائرة الولاية التي يجب أن نتأكد من أنها مفتوحة أمام كل المسلمين وليست حكراً على الصوفيين وحدهم ، يصبح في دائرة من كشف الله عن بصيرتهم بشرح الصدر ، وفي عداد من تنعّموا بنور يمكّنهم من تلمّس معرفة ما لا يستطيعه من لم يبلغوا هذه الدرجة . هذا المفهوم يمكن الرجوع فيه إلى الآية الكريمة : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[2] .

بهذا المعنى لأهمية تزكية النفس من أجل سلوك طريق الولاية كانت ترتبط كثير من تعريفات التصوف . فالكلاباذي يقول : « من ترك الدنيا وزهد فيها وأعرض عنها صفّى الله سرّه ونوّر قلبه »[3] . ولعل هذا التعريف يتكرر مما يجانسه في المدلول عند الصوفيين وليس القصد منه هجر الدنيا كما سنبيّن لاحقاً إن شاء الله ، وإنما ينطلقون به مما ذكرناه بأنّ البدن بتركيبه هو من هذا العالم المادي أما النفس وهي روحانية فليست من هذا العالم ولا تجانسه بخصائصها ، ولذا فإن التوجّه إليها بالتسوية والتصفية من كل ما يكدّرها ، يعني

---

(١) سورة طه ، آية ٢٥ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٢٢ .

(٣) الكلاباذي ، أبو بكر محمد بن اسحاق البخاري ، التعرّف لمذهب أهل التصوف ، نشر وتصحيح إرثر جون أوبري ، مصر ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م ، ص ٧ .

بالمقابل عدم إيلاء الاهتمام الرئيسي للبدن ، لأن النفس إذا صلحت صلح الإنسان ، فالإنسان بنفسه وليس ببدنه ، والنفس هي المقدمة للتغيير وهي التي تقود البدن وتفعل فعلها فيه ، والعكس غير صحيح ، ولذلك خاطبنا اللّه تعالى ـ إذا كنا ننشد تغيير حالنا المتردية ـ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[1] .

ويذكر الكلاباذي تعريفات عن سبب التسمية للصوفية تدور حول هذا المفهوم ، فلقد جاء عنده : « **قالت طائفة إنما سُمّيت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها** . وقال بشر بن الحارث : **الصوفي من صفا قلبه للّه** . وقال بعضهم : **الصوفي من صفت للّه معاملته ، فصفت له من اللّه عزّ وجلّ كرامته** . وقال قوم : إنما سُمّوا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي اللّه جلّ وعزّ بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه »[2] .

وينقل الكلاباذي أيضاً في كتابه أن الجنيد قد سئل عن التصوّف فقال : « تصفية القلب عن موافقة البريّة ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعي النفسانية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلّق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة والوفاء للّه على الحقيقة واتباع الرسول ﷺ في الشريعة »[3] .

---

(١) سورة الرعد ، آية ١١

(٢) الكلاباذي ، م . س ، ص ٥ .

(٣) الكلاباذي ، م . س ، ص ٩ .

إن الصوفية كمـا يلاحظ من هـذه التعريفـات يولـون الاهتمام الرئيسي للنفس وصفائها ، ولا يتوقّفون كثيراً أمام المظهر واللباس لأنّه لا يحمل ثمة مدلول عن التقوى ، والأولى هو تزكية النفس . فالمظهر قد يخفي أحياناً وراءه من النوايا والتوجهات ما يعاكسه تماماً ، ولهذا أنف كثير من السلف الصالح أن ينسبوا لظاهر أحـوالهم لأن صلاح المرء ليس بصلاح مظهره الخارجي الذي لا يمنع أن يعتنى به ، ولكن الصلاح الحقيقي هو في صلاح السريرة ، صلاح العقل والقلب ، اللذين ينعكس صلاحهما صلاحاً في العمل والسلوك .

أما ربط قيمة عمل الإنسان ، وحقيقة حاله بالمظهر فهذا أمر لم يأبه له الصالحون سواء كانوا من الصوفيين أو من غيرهـم . ويروي القشيري في رسائله في هذا الباب ما يلي : « دخل بعض الصوفية على أحد المتنعمين فسأله عن لبس المرقعة ، فقال : إن قلت لبسته من الفقر شكوت ربّي ، وإن قلت لبسته من اختيار فقد زكيت نفسي ، ولكن عبد ذليل لربّ جليل يلبس ما يريد .

وسئل سهل بن عبد الله عن التصوف فقال : الفتوة والشجاعة والصدق »[١] .

إن التصوف هو منهج سلوكي يقوم على ركائز روحية ـ وجدانية تؤدي إلى صفاء القلب ونقاء السريرة ، وليس منهجاً مادياً أو قائمـاً على حالة عقلية فقط ، بل يسعى الصوفي بعد أداء الفـرائض إلى

(١) القشيري ، عبد الكريم بن هوازن ، الرسائل القشيرية ، حققها وعلق عليها وترجمها د. فير محمد حسن ، باكستان ، المعهد المركـزي للأبحـاث الإسـلاميـة ، بدون تاريخ ، ص ٦٠ .

تحقيق حالة روحية لا تكون لغيره ، ولا يشاركه فيها أي إنسان آخر.

وأساس الشخصية الصوفية القناعة بالضروري من متطلبات البدن ، والحياة المادية حتى لا يفسد التعلّق بالدنيا على الإنسان سموه الذي يطلب فيه الوصول الى درجة الإحسان التي عرّفها النبي ﷺ في الحديث الشريف : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك » . [البخاري ومسلم] .

عن هذا المفهوم قال الطوسي عن السلوك الصوفي : « بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم ترك ما لا يعنيهم وقطع كل علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير اللّه تعالى ثم لهم آداب وأحوال شتّى فمن ذلك القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها والاكتفاء بالقوت الذي لا بدّ منه والاقتصار على ما لا بدّ منه من مهنة الدنيا من الملبوس والمفروش والمأكول وغير ذلك »(١) .

لكن الطوسي في تعريفه للصوفيين ، وفي سبب تسميتهم يرغب في التزام مقولة أن الصوفية منسوبون لظاهر لباسهم الذي اقتدوا فيه بالأنبياء والرسل عليهم صلاة الله وسلامه ، فيقول : « الصوفية عندي ، والله أعلم ، نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال ، التي هم بها مترسّمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصدّيقين وشعار المساكين المتنسّكين »(٢) .

---

(١) الطوسي ، ابو نصر عبد الله بن علي السرّاج ، اللّمع في التصوّف ، نسخ وتصحيح رينولد ألّن نيكلسون ، ليدن (هولندا) ، مطبعة بريل ، سنة ١٩١٤ ، ص ١١ .
(٢) الطوسي ، أبو نصر عبد الله بن علي السرّاج ، م . س ، ص ٢١ .

إلاّ أن هذا التعريف للصوفية من قبل الطوسي الذي رجح ربط التسمية بظاهر اللباس ليس مقبولاً عند الجميع ، وهذا أمر غير مستغرب ، فالتصوف كما سلف القول : حال روحية ـ وجدانية خاصة بصاحبها . ومن هذا القبيل في ذاتية المسألة ينقل الطوسي في كتابه « اللّمع في التصوف » التعريفات التالية :

قيل لعبد الواحد بن زيد كما بلغني ، وكان ممن يصحب الحسن رحمه الله وكان من أجلّة أصحابه : من الصوفية عندك ؟ فقال : القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم المعتصمون بسيّدهم من شرّ نفوسهم هم الصوفية .

وسئل ذو النون المصري رحمه الله عن الصوفي ، فقال : هو الذي لا يتعبه طلب ولا يزعجه سلب ، وقال أيضاً : هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم اللّه على كل شيء .

وإذا ما عدنا إلى أحد أصحاب الطرق البارزة الشيخ عبد القادر الجيلاني ، فإننا نلاحظه يربط الصوفية بحال النفس وتزكيتها ، ويميّز بين الصوفي والمتصوّف ، فيقول : « صوفي : مأخوذ من المصافاة ، يعني عبداً صافاه الحقّ عزّ وجل ، ولهذا قيل : الصوفي من كان صافياً من آفات النفس ، خالياً من مذموماتها ، سالكاً لحميد مذاهبه ، ملازماً للحقائق غير ساكن بقلبه إلى أحد من الخلائق .

وقيل : إن التصوف : الصدق مع الحق ، وحسن الخلق مع الخلق .

وأمّا الفرق بين المتصوّف والصوفي ، فالمتصوّف المبتدىء ،

والصوفي المنتهي . المتصوف الشارع في طريق الوصل ، والصوفي من قطع الطريق ووصل إلى من إليه القطع والوصل . المتصوّف متحمّل ، والصوفي محمول ، حمل المتصوف كل ثقيل وخفيف ، فحمل حتى ذابت نفسه وزال هواه ، وتلاشت إرادته فصار صافياً فسمي صوفياً »[1] .

ننتقل بعد ذلك إلى الغزالي لنتعرف على نموذج متقدّم من التعريف بالمنهج الصوفي القائم على الاقتران بين العلم والعمل ، وكأنه بذلك يرفض كل لون من ألوان الشطحات والادعاءات التي لا تمت إلى واقع السلوك العملي للإنسان في عباداته ومعاملاته .

بعد تجربة عميقة واطلاع واسع يقدّم لنا الإمام الغزالي تحديداً للمنهج الصوفي في كتابه « المنقذ من الضلال » ، فيقول :

« علمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزّه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . . . فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلّم بل بالذوق والحال وتبدّل الصفات . وكم من الفرق بين أن تعلم حدّ الصحة وحدّ الشبع وأسبابهما وشروطهما ، وبين أن تكون صحيحاً وشبعان ؟ .

---

(١) الجيلاني الحسني ، الشيخ عبد القادر ، الغُنية لطالبي طريق الحق ، ج ٢ ، مصر ، مكتبة البابي الحلبي ، ط ٣ ، سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٦٥م ، ص ١٦٠ .

. . . فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال »[1] .

ونجد صوراً للتصوف قائمة على الخلوة والاعتزال عند من أزعجتهم شؤون واقعهم ومشكلاته ، حيث يجدون في الانقطاع للعبادة مجالاً للهروب من المواجهة ، مع أن القاعدة : أن يخالط الانسان الآخرين ويتحمل أذاهم ، وأن يكون مواجهاً صابراً بعزيمة . ولعل ما سنجده في تعريف ابن خلدون للتصوف في مقدمته هو ما جعل كتاباً ومفكرين مسلمين يقفون موقفاً سلبياً من التصوف يؤدي إلى تعطيل وشلّ قدرة من يلتزم به .

يقول ابن خلدون عن التصوف : « هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة في الملّة . وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة »[2] .

ويوافق ابن خلدون ، وهو الذي يقال إنه قد التزم منهجاً طرقياً

---

(١) الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال ، قدّم له فريد جبر ، بيروت ، المكتبة الشرقية ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ ، ص ٣٥ .

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ط ١ ، سنة ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م ، ص ١٠٦٣ .

صوفياً ، الصوفيين على اتجاههم إلى النفس ومحاسبتها ، والسعي للسمو بها فوق الماديات المحيطة، ويعدّ تزكية النفس بالانتقال بها من مقام إلى آخر في سلم مقامات الطريق الصوفية سبيلاً لبلوغ السعادة ، ويقول : « أما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لأحد ، وأذواقهم فيه صحيحة والتحقّق بها هو عين السعادة »[1] .

ويطالعنا تعريف آخر للتصوف فيه تركيز على ضرورة الاتجاه الى الله بالكلية بحيث يصل المتصوف الى درجة من درجات الرقي الروحي الذي يجعله متلاشي الإرادة لا يتحرك ولا يعمل إلا في ذكر الله . هذا المفهوم طرحه السيد محمود أبو الفيض المنوفي الذي قال :

« حقيقة التصوف أن تغني حالُك عن مقالك ، وأن تكون مع الله بلا كون في حالتي صحتك واعتلالك ، وأن تدع الاعتماد على كل ما سوى الله جملة وتفصيلاً ، وأن تعكف على ذكره بكرة وأصيلاً .

. . . . الصوفية هم المجتمعة على الله هممهم ، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم ، الذين لا يشهد سوى الله أسرارهم ، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم ، فهم أحكم الناس وأعقلهم »[2] .

---

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، م . س ، ص ١٠٧٨ .

(٢) المنوفي ، السيد محمود أبو الفيض ، المدخل إلى التصوف ، القاهرة ، الدار القومية ، بدون تاريخ ، ص ٩ .

إن سلوك الطريق الصوفي أمـر ليس سهلاً ، ولا يستـطيعه أي إنسان طمح إليه ، لأنه علم وعمل ، تعقّل وعزيمة ، وهو استعداد يتميّز به بعض الناس ممن واظبوا على تـوسيع مـداركهم وتحصين سلوكهم بالطاعات والعبادات حتى يصبح الإنسان مؤهلاً لسلوك هذا الطريق . .

في هذا قال المنوفي معرّفاً : « إن التصوّف الحق حال ناشئة عن علم مشمول بعمل ومدعم بإحسان ويقين مبصر ، فهو ثمرة لتقـوى خالصة ، وإخلاص غير مشـوب يؤتاهمـا أفراد لهم استعـداد سامٍ وإحساس مرهف ولهم وراء الاستعـداد والاحساس عقـل راجح ، ومن وراء العقل بصيرة نفاذة وعزم قوي وهدايـة موهـوبة ، وإلهـام لدني »[1] .

---

(١) المنوفي ، السيد محمود ابو الفيض ، م . س ، ص ٣٠ .

الفصل الثاني

تاريخ التصوف وعلاقته بالفقه

- مصادر التصوف ونشأته
- التصوف والفقه



مصادر التصوف ونشأته

لا يختلف الباحثون على أن التصوف نشأ أساساً عن ذلك الزهد الذي اتصف به النبي ﷺ ، والعدد الأكبر من الصحابة والتابعين . وكانت حالة الزهد هذه أمراً طبيعي الحدوث بفعل النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تحمل معاني التشجيع للمؤمن على العمل من أجل الآخرة ، ومحاولة الإقلاع عن الانغماس في عرض الدنيا الزائل ، مع المطالبة بتزكية النفس ، والتوكل على الله ، والخوف منه تعالى ، والرجاء الدائم برحمة الله وغفرانه . . . الخ .

وإذا كانت قد اختلفت الآراء وتعددت حول الاشتقاق لكلمة « صوفي » ـ كما سبق ـ إلا أن معالم الطريق الصوفي في أصلها ناشئة من الإسلام وتعاليمه . فمن دوافع الزهد والتوجه بجلّ الجهد من أجل الفوز بالآخرة قول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾[1] .

ومن الآيات القرآنية التي تدعو المؤمن إلى التزود للآخرة من

---

(١) سورة الشورى ، آية ٢٠ .

الدنيا لأنها دار فناء قول الله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] . في هذه الآية الكريمة أن بعض الناس ينساقون إلى أفعالٍ يدعو إليها الجهل بالنافع من الأعمال ، فتراهم يحاولون صرف الهم عن أنفسهم باللهو بالملابس والمنازل وما تشتهيه الأنفس ، وبالتفاخر في الأنساب ، والمباهاة بالتكاثر العددي ، ولكن كل هذا عرض جاهز للزوال كنبات يسرُّ أصحابه وناظريه ، ما يلبث أن يصفر ويتحول هباءً منثوراً ويكون بسبب ذلك عذاب شديد في الآخرة لمن انهمك في الدنيا بهذه الأعراض فهي متاع الغرور ، ويكون الرضوان والرحمة من الله لمن أعرض عن هذا السلوك .

وإذا أردنا استئناف العرض فسنجد آيات قرآنية عديدة يمكن إدراجها في هذا الباب ، ولكن نكتفي بهاتين الآيتين لكي نذكر بعض الآيات التي تدعو إلى التوكل ومنها قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[3] .

ومن الآيات المؤثرة في نشأة الزهد والمتخذة شاهداً للسلوك

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٠ .

(٢) سورة الطلاق ، آية ٣ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٥٩ .

الصـوفي تلك التي تتحدث عن الخـوف والرجـاء ومنهـا قـول الله تعـالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِـعِ يَدْعُـونَ رَبَّهُمْ خَوْفـاً وَطَمَعاً ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي ٱلأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾[2] . وهناك آيات عديدة في هذا الباب ، تقود إلى المعنى المتشابه لهاتين الآيتين اللتين نكتفي بهما لنذكر بعض الآيات التي جاءت في قيام الليل للعبادة أو للتسبيح مما اتخذ عماداً أساسياً عند الزهاد والصوفيين ، الذين وصفتهم الآية الكـريمة بـأن جنوبهم تتجافى عن المضاجع لقلة النوم .

من الآيات التي تحث على العبادة في الليل والتسبيح والقيام قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ ٱللَّيْـلِ فَٱسْجُـدْ لَهُ وَسَبِّحْـهُ لَيْلاً طَـوِيلاً ﴾[4] وقـوله تعـالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾[5] .

ولقد ورد في موضوع إخلاص الحبّ للّه تعالى ،وهذه مسألة رئيسة في الطريقة الصوفية،قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَـانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ

---

(١) سورة السجدة ، آية ١٦ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٥٦ .

(٣) سورة الإسراء ، آية ٧٩ .

(٤) سورة الدهر (الإنسان) ، آية ٢٥ ، ٢٦ .

(٥) سورة الفرقان ، آية ٦٤ .

فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾[1] .

فالحب للّه تعالى ورسول الله ﷺ يجب أن يقدم على ما عداه لأنّه سبيل النجاة في الآخرة والدنيا ، وما تفضيل الأهل والأصحاب وأعراض الدنيا على هذا الحب وعلى الجهاد في سبيل الله إلّا من وسواس الشيطان الذي يسعى للإيقاع بالإنسان متى وجد طريقاً ينفذ منه من وهن أو ضعف .

بعد هذه الملامح وهي قليل من كثير مما جاء في القرآن الكريم ، وكان العامل الأساسي في نشوء حركة الزهد ، وبعده التصوف في الإسلام ، يمكننا العودة إلى سيرة النبي ﷺ تلك السيرة العطرة التي تجسدت فيها أسمى أنواع الزهد والتواضع المقترنين بعبادة تصل إلى حد القيام في الليل حتى تتفطر قدما رسول الله ﷺ ، وعندما يسأل عن ذلك ، رغم أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنب وما تأخر ، يجيب : وعلى ذلك أفلا أكون عبداً شكوراً . والشكر كما نعلم من أبرز مقامات الصوفيين .

إضافة الى النموذج الراقي للزهد الذي يستفاد من سلوك النبي ﷺ والذي سبق الحديث عنه هناك عدد غير قليل من الأحاديث الشريفة التي تحثّ عليه ومنها الحديث : « إزهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك »[2] .

---

(١) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

(٢) رواه ابن ماجه .

وجاء عدد كبير من الأحاديث موصياً المؤمن بأن لا يركن إلى الدنيا ، وأن يقصر أمله ؛ أي أن لا يحدث نفسه بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها إلا بقدر النصيب والحاجة . فلقد روي عن « ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »(١) .

وفي حديث متفق عليه : أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرّضوا له فتبسّم حين رآهم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ » فقالوا : أجل يا رسول الله .

فقال : « أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

إذا كان اسم التصوف لم يظهر في الاستخدام قبل النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، إلا أن هذا لا يعني أنّه من نشأة غير إسلامية بل يمكن تصنيفه على أنه ثمرة ذلك الزهد الذي انتشر بفضل الروح الإسلامية التي عرضنا بإيجاز بعض معالمها ، لذلك لا بدّ من

---

(١) رواه البخاري ، ونقله النووي في رياض الصالحين .

الاعتراف بأن التصوف نشأ من داخل الإسلام نفسه منهجاً ومفاهيماً يوجد لها نصوص عديدة في القرآن والسنة .

يضاف إلى ذلك أن الواقع الاجتماعي والسياسي ، بعد توسع الفتوحات الإسلامية ، قد ساهم في نشأة مدارس التصوف على أيدي من أرادوا تمييز أنفسهم عن معاصريهم ممن مالوا إلى التنعم والرخاء في العيش ، وفي هذا يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « إنّه إلى جانب الأصول الإسلامية العقائدية (القرآن والحديث) أثّر في ايجاد النزعات الصوفية عوامل اجتماعية أو فردية ، من أزمات سياسية ، أو أزمات نفسية »[1] .

والمستشرق نيكولسون الذي صرف بعض نشاطه لدراسة التصوف لم يخالف هذا الرأي عندما قال : « لا نرى أن في أقوال متصوفة الزهاد ، من أمثال ابراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦١ هـ) وداود الطائي (المتوفى سنة ١٦٥ هـ) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) وشقيق البلخي (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) ما يدلّ على أنهم تأثروا بالمسيحية أو بأي مصدر أجنبي آخر إلا قليلاً ، وبعبارة أخرى يبدو لنا أن هذا النوع من التصوف كان ـ أو على الأقل من المحتمل أنه كان ـ وليداً لحركة الإسلام ذاته ، وأنه كان نتيجةً لازمةً لفكرة الإسلام عن الله »[2] .

---

(١) بدوي ، د. عبد الرحمن ، تاريخ التصوف الاسلامي ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ط ١ ، سنة ١٩٧٥م ، ص ٤٨ .

(٢) نيكولسون ، رينولد ألن ، في التصوف الإسلامي وتاريخه ، نقله إلى العربية د. أبو =

لكن التصوف الذي نشأ نشأة إسلامية في البداية كانت حاله كحال غيره من العلوم ،حيث لم يسلم مع الزمن من تأثيرات فلسفية ودينية غير إسلامية . عن هذه النقطة يقول الدكتور عمر فرّوخ : « التصوف الإسلامي مبني في أساسه على الإسلام ، ولا نستطيع أن نفهمه حقّاً ما لم نفهم التطور الذي سلكه الدين الإسلامي في انتشاره وتقلّب الأحوال به . ولكن بما أن الحركات لا تكون أبداً خالصة من المؤثرات الأجنبية فإن التصوف في الإسلام لم يكن كذلك خالصاً من عناصر غريبةٍ عنه . إن تلك العناصر لم تَدعُ إليها حاجة العرب إلى ما عند غيرهم ، بل اقتضى وجودها في التصوّف الإسلامي أن كثيرين من المتصوفة كانوا غير عرب فحملوا معهم إلى الإسلام تخيّلات غريبة ورياضات شاذة واعتقادات متفرقة دخل أكثرها فيما بعد في التصوف الإسلامي »[1] .

ويوافق الدكتور ابراهيم مدكور على هذا الرأي فيقول : « التصوف ظاهرة اسلامية نبتت في جو الإسلام وبيئته ، وتأثرت أساساً بفعل النبي وأصحابه ، واعتمد على ما جاء في الكتاب والسنّة من حكمة وموعظة ، وشاركت المدارس الإسلامية الكبرى في بعض ما عرضت من مشاكل . ولكنها كالظواهر الإسلامية الأخرى لم تسلم مما سرى إلى العالم العربي من عوامل خارجية، وكان لا بدّ لها أن

= العلا عفيفي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م ، ص ٣ .

(١) فرّوخ ، د. عمر ، التصوف في الإسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ، ص ٢٩ .

تتأثر بها وتأخذ عنها »[١] .

قبل أن نتعرض للمؤثرات الأجنبية الدخيلة في التصوف والتي كان لها أثر سلبي عليه ، لا بد من التوقف عند عامل فرضته الأحوال السياسية والاجتماعية ، حيث رفض أتقياء المسلمين الانغماس في الدنيا والجنوح إليها فكان من نتيجة ذلك أن قامت عند الزهاد والمتصوفة « ثورة داخلية هي نزاع بين نفس لا تزال على إيمان غض قوي ، ودنيا مقبلة عليهم بشهواتها ومباهجها ، وكان الطريق الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو الفرار من الحياة وما فيها من لذات ، ورياضة النفس على الطاعات والمجاهدات »[٢] .

لكن الثورة عند الصوفية والزهاد على النظام الاجتماعي وما انتشر فيه من فساد ، وعلى النظام السياسي وما شاع من ظلم وتسلط ، لم تكن فعلاً إيجابياً في إطار الإصلاح ، والعمل على تغيير الواقع إلى ما هو أفضل ، وتشريع سيف الجهاد في وجه السلطان الجائر ، بل كانت ثورة الصوفيين ثورة ذاتية لا تتجاوز الحالة الوجدانية لصاحبها مما يحملنا على القول : إن ما قام به الصوفيون هو هروب ، وعمل سلبي لم يؤت ثماراً تذكر في إصلاح الشأن العام .

هذه السلبية في المواجهة تضاف إليها سلبية نقل مفاهيم من ديانات وفلسفات أجنبية كان لها أسوأ الأثر على كثير من حلقات

---

(١) مدكور ، د . ابراهيم ، في الفلسفة الإسلامية ، ج ٢ ، مصر ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٣م ، ص ١٣٤ .

(٢) عفيفي ، د. أبو العلا ، التصوف الثورة الروحية في الاسلام ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ١ ، سنة ١٩٦٣ ، ص ٧١ .

الصوفيين مما أوصل بعضها إلى شطحات وهرطقات ليست من الإسلام في شيء . وإذا كان الدكتور عبد الرحمن بدوي قد حاول التخفيف من الأثر الدخيل في التصوف في قوله : « إنه مع تطور التصوف والاتصال بالأفكار الأجنبية انضافت الى التصوف الأول قسمات من أصول أجنبية كانت بمثابة زخارف وتنويعات »[١] ، إلّا أن دفاعه هذا غير موفق لأن العوامل الدخيلة لم تبق عند حدود الزخرفة بل تعدتها إلى طرح مفاهيم بدعوى التعبير الرمزي والإشارات ، قادت أصحابها إلى التحلّل من ضوابط الإسلام وفرائضه .

دفع هذا التطرف في سلوك الصوفيين مؤرخي الفكر الإسلامي ومنهم الدكتور عمر فروخ إلى القول : « الصوفية حركة بدأت زهداً وورعاً ثم تطورت فأصبحت نظاماً شديداً في العبادة ، ثم استقرت **اتجاهاً نفسياً وعقلياً بعيداً عن مجراها الأول ، وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة** »[٢] .

إن المؤثرات الدخيلة في الطرق الصوفية أتت من مصادر متعددة منها :

١ ـ التأثير الهندي :

إن التنوع الاجتماعي ، مضافاً إليه تقلّب الأحوال السياسية حمل الهنود في مختلف فرقهم على الميل إلى حياة التقشف والزهد، وإلى

---

(١) بدوي ، د . عبد الرحمن ، تاريخ التصوف الاسلامي ، م . س ، ص ٤٨ .

(٢) فروخ ، د. عمر ، تاريخ الفكر العربي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة ١٩٧٢م ـ ١٣٩٢هـ ، ص ٤٧٠ .

احتقار اللذات الجسدية مما جعلهم يتوافقون مع بعض أنماط السلوك الصوفي .

إن أبـرز مـا عنـدهم في هـذا المجـال يقـوم على اعتقـادهم بالتناسخ ، وعما تعانيه النفس العاقلة عند انتقالها من بدن إلى آخر ، ولذلك يجب على الانسان أن يطهر نفسه من دنس البدن حتى ترقى في الكمال ، وصولاً إلى الانفصال للروح عن عالم الأبدان واتحادها بالروح الكلية للعالم بما سمّوه : النرفانا .

لذا كانت وما تزال رياضة « اليوجا » التي تقوم على تعذيب البدن وقهره ، أحد أهم الطقوس الدينية الهندية ، من أنواع الطقوس في محاربة كل زينة في الحياة الدنيا أفعال الاكنواطريـة ـ عبّاد النـار . ويقول عنهم الشهرستاني : « وإنما عبادتهم لها (النار) أن يحفروا أخدوداً مربعاً في الأرض ، ويؤجّجوا النار فيه ؛ ثم لا يدعون طعاماً لذيذاً ، ولا شراباً لطيفاً ، ولا ثوباً فاخراً ، ولا عـطراً فائحـاً ، ولا جوهراً نقياً إلا طرحوه فيها تقرباً إليها . . ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين يسدّون منافسهم حتى لا يصل إليها من أنفاسهم نفس صَدَر عن صدر محرم .

وسنتهم : الحث على الأخلاق الحسنة ، والمنع من أضدادها ، وهي الكذب ، والحسد والحقد ، واللجاج ، والبغي ، والحـرص والبطر »[1] .

---

(١) الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكـريم ، الملل والنحل ، ج ٢ ، تحقيق محمد سيّد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢ ، ص ٢٦٢ .

وقد زادت بعض فرق الهنود في غلوها عن هذا المفهوم فقالت: « إن التناسل في هذا العالم هو الخطأ الذي لا خطأ أبين منه ، إذ هو نتيجة اللذة الجسدانية ، وثمرة النطفة الشهوانية فهو حرام ، وما يؤدي إليه من الطعام اللذيذ ، والشراب الصافي ، وكل ما يهيج الشهوة واللذة الحيوانية ، وينشّط القوة البهيمية فهو حرام أيضاً ، فاكتفوا بالقليل من الغذاء على قدر ما تثبت به أبدانهم ؛ ومنهم من كان لا يرى ذلك القليل أيضاً ليكون لحاقه بالعالم الأعلى أسرع »[١] .

٢ ـ التأثير اليوناني :

نقل العرب معظم فلسفة اليونان ، وبشكل خاص كتب أفلاطون وأرسطو ولم يخلُ التصوف من بعض طروحات هذين الفيلسوفين ؛ ومن ذلك مذهب أفلاطون في النفس .

كان أفلاطون يقول بأن للنفس حياة سابقة على حياة البدن ، حيث أنّها كانت تعيش في عالم المثل المنزّه عن الحس ، وبعد ذلك عوقبت عندما حلّت في بدن مركب من طبيعة عالمنا الأرضي الذي يقول فيه أفلاطون بأنه ظل لعالم المثل . والنفس تبقى في صراع مع البدن ومتطلباته ، وكان له في ذلك عبارة شهيرة يقول فيها : البدن سجن النفس .

والإنسان الحكيم الفاضل هو من استطاع تخليص نفسه في الحياة الدنيا من قيود هذا السجن بقهر الشهوات ، وتحكيم العقل

---

(١) الشهرستاني ، م. س ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

والإرادة ، مما يؤدي إلى نظام قاسٍ من الزهد والتقشف ، مع العلم أن الخلاص النهائي للنفس لا يكون إلا بالموت حيث تعود من جديد إلى عالم المثل . فمحاولة تزكية النفس ونصرتها في صراعها مع البدن بالزهد وفق المذهب الأفلاطوني ، هي مما يقارب إلى حدٍ بعيد ذلك التركيز عند الصوفيين على النفس وإهمال البدن ، لأن انتصار النفس سبيل إلى الفضيلة ، واتباع البدن وشهواته طريق إلى الرذيلة .

أما الأثر اليوناني الثاني فهو من أرسطوطاليس في مفهومه لطبيعة الخالق واجب الوجود وعلاقته بالمخلوقات . وهو يسمي الخالق واجب الوجود فيقول : إنه واحد ويعقل ذاته ثم من ذاته يعقل كل شيء ، ولكنه لا يعقلها على أنها أمور خارجة عنه فيكون تعقله من جنس تعقلنا للمحسوسات بل يعقلها على أنها من ذاته .

وواجب الوجود هو الكامل لذاته المكمل لغيره ، ولهذا السبب تتحرك كل المخلوقات باتجاهه حركة غائية ، هي حركة العشاق باتجاه معشوقهم ، لانفراده بالكمال الذي يقود إلى هذا العشق ؛ وهذه النظرة الأرسطية تتوافق مع المغالين في الحب الإلّهي من الصوفيين الذين وصلوا إلى حال عشاق اشتد وجدهم وشوقهم إلى الاتصال بمعشوقهم .

يقول أرسطو عن إمكان معرفة الواجب الوجود والاتصال به : « اللذة في المحسوسات هو الشعور بالملائم ، وفي المعقولات الشعور بالكمال الواصل إليه من حيث يشعر به . فالأول مغتبط بذاته ، ملتذ بها ، لأنه يعقل ذاته على كمال حقيقتها وشرفها وإن جلّ عن أن ينسب إليه لذة انفعالية ، بل يجب أن يسمى ذلك بهجة ،

وعلاء ، وبهاء . كيف ونحن نلتذ بإدراك الحق ، ونحن مصروفون عنه ، مردودون في قضاء حاجات خارجة عمّا يناسب حقيقتنا التي بها ناس ، وذلك لضعف عقولنا ، وقصورنا في المعقولات ، وانغماسنا في الطبيعة البدنية ، لكنّا نتوصل على سبيل الاختلاس فيظهر لنا اتصال بالحق الأول ، فيكون كسعادة عجيبة في زمان قليل جداً ، وهذه الحال له أبداً ، وهو لنا غير ممكن لأنا مذنبون ، ولا يمكننا أن نشم تلك البارقة الإلّهية إلا خطفة وخلسة »[١] .

إن البهجة تكون بالمعرفة المجردة عن المحسوسات التي يحقق فيها العبد الاتصال مع الخالق واجب الوجود ، وهذه لا تكون للإنسان إلا قليلاً ، وهذا ما يلتقي فيه أرسطو مع الصوفيين في موضوع إمكان الاتصال مع الله تعالى ، وبما عرف بشرح الصدر بواسطة نور يقذفه الله في الصدر .

إن سعادة الأنفس تتحقق بمقدار تخلصها من علائق البدن ، واستكمالها بواسطة الإدراكات الفعلية المجردة عن المحسوسات . ويقول أرسطو : « إن النفوس الإنسانية إذا استكملت قوتي العلم والعمل تشبهت بالإلّه سبحانه وتعالى ، ووصلت إلى كمالها ، وإنما هذا التشبّه بقدر الطاقة يكون إما بحسب الاستعداد ، وإما بحسب الاجتهاد . فإذا فارق البدن اتصل بالروحانيين ، وانخرط في سلك الملائكة المقربين ، ويتم له الالتذاذ والابتهاج . وليس كل اللذات هي جسمانية ، فإن تلك اللذات لذات نفسانية عقلية ، وهذه اللذة الجسمانية تنتهي إلى حد ، ويعرض للملتذ سآمة وكلال وضعف

---

(١) الشهرستاني ، م . س ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

وقصور إن تعدى عن الحد المحدود ، بخلاف اللذات الفعلية فإنها حيثما ازدادت ازداد الشوق والحرص والعشق إليها »[1] .

والعالم الرياضي اليوناني فيثاغوراس كان له رأي في النفس وتزكيتها بالمجاهدة كما أنه عاش حياة خلوة واعتزال مع تلامذته سعياً لتخليص النفس من آثار العالم الخارجي المحيط بها ، فبالتعقل والعلم تحصل للنفس إعادة الاندماج مع عالمها والتآلف معه . ولقد ذكر فيثاغوراس « أن الإنسان بحكم الفطرة واقع في مقابلة العالم كلّه ، وهو عالم صغير ، والعالم إنسان كبير ، ولذلك صار حظه من النفس والعقل أوفر ، فمن أحسن تقويم نفسه وتهذيب أخلاقه وتزكية أحواله أمكنه أن يصل إلى معرفة العالم وكيفية تأليفه ، ومن وضع نفسه ولم يقم بمصالحها من التهذيب والتقويم خرج من عداد العدد والمعدود ، وانحلّ عن رباط القدر والمقدور ، وصار ضياعاً هملاً .

فإن كانت التهذيبات الخلقية على تناسب الفطرة ، وتجردت النفوس عن المناسبات الخارجة اتصلت بعالمها ، وانخرطت في سلكها على هيئة أجمل وأكمل من الأول ، فان التأليفات الأولى قد كانت ناقصة من وجه حيث كانت بالقوة ، وبالرياضة والمجاهدة في هذا العالم بلغت إلى حدّ الكمال خارجة من حدّ القوة إلى حدّ الفعل »[2] .

بهذا نلاحظ أن فلاسفة اليونان قد ركّزوا على النفس وترقيتها

---

(١) الشهرستاني ، م. س ، ج ٢ ، ص ١٣٤ .

(٢) الشهرستاني ، م. س ، ج ٢ ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

وتزكيتها بالمعرفة والادراكات الفعلية والتهذيب ، وأن تتخلّى عن الالتصاق مع العالم الخارجي ، حتى تستطيع التحرك باتجاه الكمال ، وهذا أمر يلتقون فيه مع الصوفيين الى حد كبير .

٣ ـ التأثير المسيحي :

يأتي في مقدمة المؤثرات المسيحية في التصوف الإسلامي نظام الرهبنة الذي نشأ عند المسيحيين ـ خاصة بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له والصراعات بين المدارس اللاهوتية وبين الكنائس ـ ونظام الرهبنةهذا كما نعلم يقوم على احتقار البدن وهجر الدنيا ، واعتزال الناس في الأديرة ، والأبنية المقامة في مناطق نائية ، والامتناع عن الزواج ، والرضا بالقليل من نصيب الإنسان في الدنيا من لباس وطعام .

وهذه الرهبانية كما نصت آيات القرآن هي بدعة وطريق لأكل أموال الناس بالباطل لمجرد الامتناع عن الكسب . ففي القرآن الكريم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾[١] ! وفي آية أخرى ﴿ إنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلاحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢] .

لكننا مع ذلك نجد تشابهاً كبيراً بين نظامَ التصوف عند بعض الطرق مع نظام الرهبنة ، لجهة تعذيب البدن ، والامتناع عن

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٧ .

(٢) سورة التوبة ، آية ٣٤ .

الزواج ، واعتزال الناس وغير ذلك .

أما المسألة الثانية وهي الأخطر فهي ما عُرف بالحلولية . ففي المفهوم المسيحي لطبيعة المسيح عليه السلام تتمحور المواقف حول وجهين لشخصية المسيح هما اللاهوت الذي حلّ في الناسوت . فالمسيح وفق مفهوم أوريجنس ـ وهو فيلسوف مسيحي ـ هو كلمة وعقل حلّ في عيسى الإنسان . وبهذا المعنى يكون المسيح قد بدا وظهر أو تجلى في شخص عيسى ، وفكرة الحلول هذه تفيد أن عيسى إنسان إلّهي ؛ صورته الخارجية صورة إنسان ، وطبيعته الداخلية مما ينتمي للإلّه . فهو من طبيعتين امتزجتا وصارتا طبيعة واحدة ، إنّه مركب من الناسوت واللاهوت (كما يزعمون) .

تتضح هذه الحلولية عند كثير من المتصوفين المتأخرين مما حمل علماء المسلمين على استباحة دمهم ورميهم بالكفر ، من هؤلاء مثلاً الحسين بن منصور الحلاّج الذي نقل له شعر يظهر أخذه بمذهب الحلول المخالف للإسلام ، ويقول في أبيات له :

«سبحان من أظهر ناسوته ... سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً ... في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه ... كلحظة الحاجب بالحاجب»[1]

ومن الأبيات التي قالها الحلاّج وتؤكد أيضاً قوله بالحلولية :

---

(١) ابن الجوزي ، تلبيس ابليس ، تصحيح ونشر دار الطباعة المنبرية بالقاهرة بمساعدة بعض علماء الأزهر الشريف سنة ١٣٦٨هـ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ ، ص ١٧١ .

أنـا من أهوى ومن أهـوى أنـا　　نحن روحـان حللنـا بـدنـا
فـإذا أبـصـرتني أبصـرتـه　　وإذا أبـصـرتـه أبـصـرتـنـا

إن هـذا الحلول للاهـوت في الناسـوت له أصـول في فلسفة أرسطوطاليس ، الـذي يتحدث عن اتحـاد الصورة بـالمادة ويفسّـر الموجودات على هذا الأساس . وفي المسيحية أن الجوهر الروحي اتحـد بالمـادة وحل فيهـا ، ومعناه حلول القـوة واتحادهـا بمجـال نشـاطها ، ووصلوا من ذلـك إلى حلول الـذات الإلَهيـة في جسم إنسان؛ أي التجسد ، ونموذجه السيد المسيح عليه السلام كما جاء عندهم .

وتابعهم في ذلك بعض فرق المتصوفة الذين « زعموا أن الحق اصـطفى أجسامـاً حلّ فيهـا بمعنى الربـوبية ، وأزال عنهـا معـاني البشـرية ، والأجسـام التي اصطفـاهـا الله تعـالى أجسـام أوليـائـه وأصفيائه ، اصطفاها بطاعته وخدمته وزينها بهـدايته ، وبيّن فضلهـا على خلقـه . والذي غلّط في الحلول لأن اللّه تعـالى لا يحلّ في القلوب ، وإنما يحلّ في القلوب الإيمان به والتصديق له ، والتوحيد والمعرفة ، وهذه أوصاف مصنوعاته من جهة صنع الله بهم ، لا هو بذاته أو بصفاته ، يحلّ فيهم »[1] .

بما أن الحلولية ليست من الإسلام الذي يقوم على تنزيـه الله

---

(١) الحفني ، د . عبد المنعم ، معجم مصطلحات الصوفية ، بيروت ، دار المسيرة ، ط ١ ، سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ، ص ٨٢ .
والطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .

تعالى عن مثل هذه المعتقدات الفاسدة من مثل ما قال به الحلاّج ، لذلك يصح القول أن ما ظهر من هذا القبيل عند بعض الصوفية هو من تأثير الحلولية المسيحية .

٤ ـ التأثير اليهودي :

لا يظهر في التصوف تأثير يهودي بارز إلاّ ما كان عند بعض أصحاب الانحرافات أو الشطحات من القول بالاتحاد .

عند العودة إلى ما ينقل عن اليهود من نصوص نجدهم وقد أعطوا للذات الإلٰهية أوصافاً حسية تجعل من الله تعالى شبهاً مع الإنسان وهذا ما عُرف عندهم بفكرة الاتحاد ، ويتجلّى ذلك في تصورهم للّه تعالى على نحو بشري .

لقد أعطوا للذات الإلٰهية صفات الجسمية والانفعال ؛ من مثل قولهم : أن الله فرغ من عمله في خلق العالم في اليوم السادس فاستراح في اليوم السابع ، وأن الرب بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه .

آدم وحواء سمعا صوت الرب ماشياً في الجنة . . الخ . هذا مما جاء في التوراة ، أما في التلمود فمن تخرصاتهم وانحرافاتهم قولهم : إن الرب يمضي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد نادباً على خراب بيته وإحراق الهيكل .

في هذا التشبيه اليهودي للّه بالإنسان يصلون إلى القول باتحاد المخلوق بالخالق . وهذا الرأي وهو رأي الحلولية بشكل معكوس إذ

هو اتحاد المخلوق بالخالق ، بدل اتحاد الخالق بالمخلوق ، هو رأي فاسد لأنه يجانس بين الله تعالى والمخلوقات مما يتعارض مع نفي المماثلة الذي جاء في الآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وإذا كان بعض أصحاب الشطحات قد اعتقد الوصول إلى حالة « الفناء في الحق » حيث تتحد الذاتان : ذات الله وذات الفاني فيه من الصوفيين ، فهذا من آثار انحرافات اليهود ، ولا علاقة له بالإسلام الحق من قريب أو بعيد .

لقد أوضح الطوسي في كتابه « اللمع » سوء فهم موضوع الفناء عند بعض المنحرفين ، وحاول أن يعطي للفناء مفهوماً مختلفاً حيث ربطه بالأخلاق وتبدل أحوالها من الأسوأ إلى الأفضل بواسطة ما يأتيها من المعرفة وشرح الصدر بالأنوار فيقول :

«أما القوم الذين غلّطوا في فناء البشرية سمعوا كلام المتحققين في الفناء ، فظنّوا أنّه فناء البشريةَ ، فوقعوا في الوسوسة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب ، وتوهم أن البشرية هي القالب والجثة إذا ضعفت زالت بشريتها فيجوز أن يكون موصوفاً بصفات الإلّهية . ولم تحسن هذه الفرقة الجاهلة الضالة أن تفرّق بين البشرية وبين أخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر . . وأخلاق البشرية تبدّل وتغيّر بما يرد عليها من سلطان أنوار الحقائق »(١) ، من مثل ذلك فناء الجهل بالعلم وفناء الغفلة بالذكر . . . الخ .

ولكن رغم تفسير الطوسي ، من الأفضل تجنب القول بالفناء ما

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م. س، ص ٤٢٧ .

دام يفسح في المجال لهرطقات وشطحات تخالف الإسلام ويبرر ذلك بعض الصوفية بأن ما صدر سببه فناء العبد عن نفسه ، وعدم درايته بما يصدر عنه . وحتى لا نقع في هذا المحظور يجب رفض الفكرة مطلقاً خاصة وأن ذكر الله تعالى وعبادته مطلوب أن يقترنا بالفكر والتفكر .

والقائلون بالفناء يعتبرون السبيل إليه أن يفنى الإنسان عن ما يدرك بالحس ، وعن ما يخطر بالعقل ، وعن كل فعل وكل شعور ، وأن يكون في حالة تأمل تصل به إلى حد تعطيل الحياة العقلية الواعية . ويضيفون بأن الصوفي يبلغ « أرقى درجات الفناء عندما يفنى عن فنائه ؛ أي عندما ينقطع شعوره بحال فنائه وإدراكه إياه . وهنا يقال : أن العبد استولى عليه سلطان الحق فلا يشهد شيئاً سواه »[١] .

وانقطاع الشعور بالذات عند الفناء كما يزعم المنحرفون من الصوفيين يقود إلى حالة الجذب وهنا يظنون أن المخلوق قد اتحد بالخالق مما يضلّهم عن جادة الصواب . وتراهم يقولون : إن الجذب « هو أرقى الأحوال ، إذ أنه حال اتحاد الصوفي بالحق . والصوفي المجذوب وصل إلى مقام الولاية وأصبح في غير حاجة بعد ذلك إلى برهان على ولايته . . . قال الصوفية إن أهل الحق الذين تولّى الله بواطنهم لا يحكم عليهم بظواهرهم ، فإن علمهم بالغيب قد يحملهم

---

(١) نادر ، د. ألبير نصري ، التصوف الإسلامي ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٢٦ .

على فعل ما يخالف ظاهر الشرع أو الأدب »[1] .

هذا المفهوم لحال المجذوب الذي تحقّق له الاتحاد والولاية ، وإغفال ظاهر أعماله هو من مورثات العقائد الفاسدة لأن العبادة الواعية هي المطلوبة في الإسلام ، ولأنه من غير المقبول أن نبيح لبعض الأفراد تحت شعار الجذب أن يمارسوا ما لا يرضاه الله تعالى ، ولا يتناسب مع أحكام الشرع الحنيف .

---

(١) نادر ، د . ألبير نصري ، م . س ، ص ٣٧ .

بين التصوف والفقه

جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1] في هذه الآية حض صريح وأمر كي ينفر جماعات من المسلمين متفقهين في دينهم ليكونوا حملة الدعوة والمرجع الصالح للناس إذا ما أشكل عليهم أمر ما ، خوف وقوعهم في خطأ أو معصية .

إن الفقهاء ، وهم منارات الأمة على طريق تطبيق أحكام الشريعة ، قد تفرّغوا لدراسة علوم الإسلام ونصوصه بفهم وروية تمهيداً لاستنباط الأحكام ، وإيضاح المشكل والغامض من المسائل ، فامتازوا بنظر دقيق « في ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع ، فبيّنوا ذلك وميّزوا الناسخ من المنسوخ ، والأصول من الفروع ، والخصوص من العموم ، بالكتاب والسنة والإجماع والقياس . . . فوضعوا كل شيء في مواضعه ورتبوا كل حد في

---

(١) سورة التوبة ، اية ١٢٢ .

مراتبه . . فبيّنوا المشكل وحلّوا العقد وأوضحوا الطرق وأزالوا الشبهات »[1] .

يحفظ الدين وتصان أحكامه من التشويه والأهواء بما قام به الفقهاء مما ذكرنا . ولقد انقسم الفقهاء في التاريخ الإسلامي إلى صنفين :

١ ـ أهل الرأي : ويأتي في مقدمهم أبو حنيفة النعمان ، وأكثرهم في العراق ، وهؤلاء يأخذون إلى جانب النصوص بالرأي .
٢ ـ أهل الحديث : ويأتي في مقدمهم مالك بن أنس ، وأكثرهم في المدينة أو تتلمذوا فيها ، وهؤلاء يلتزمون بحرفية النصوص ولا يأخذون بالرأي إلا قليلاً .

يقف بمقابل الفقهاء على جانب آخر من الإهتمام بالتطبيق لأحكام الشريعة الصوفية الذين ركزوا جلّ اهتمامهم على تربية النفوس وتهذيبها وتزكيتها .

هذا ما حمل ابن خلدون على القول : « صار علم الشريعة على صنفين :
ـ صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات .
ـ وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ، ومحاسبة النفس عليها ، والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها ، وكيفية الترقي فيها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ٩ .

تدور بينهم في ذلك »[1] .

يجب أن نعلم بأن تحصيل علم الفقه وعلم الحديث والإلمام بالعلوم الشرعية ضرورة لا بد منها لكل مسلم كل بقدر طاقته على الاستيعاب ، وإمكاناته في التفرغ للتحصيل ، فقبل العبادة والتطبيق لا بد من العلم والمعرفة ، لأن من يمشي على صراط مستقيم عن بصيرة ودراية أهدى ممن يمشي مكباً على وجهه .

والصوفي قبل أن يسلك في طريق لا بد من أن يحصل العلوم الفقهية بقدر وإلا كان معرضاً ، إذا ما تصوف مع جهل ، للانحراف .

ويقول أبو طالب المكي مؤكداً ما ذهبنا إليه : « حدثونا عن الجنيد قال : كنت إذا قمت من عند سري السقطي قال لي : إذا فارقتني من تجالس ؟ فقلت : الحارث المحاسبي ، فقال : نعم ، خذ من علمه وأدبه . . . قال : فلما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث .

يعني أنك إذا ابتدأت بعلم الحديث والأثر ومعرفة الأصول والسنن ، ثم تزهدت وتعبدت تقدمت في علم الصوفية وكنت صوفياً عارفاً ، وإذا ابتدأت بالتعبد والتقوى والحال شغلت به عن علم السنن ، فخرجت إما شاطحاً أو غالطاً ، لجهلك بالأصول والسنن ، فأحسن أحوالك أن ترجع إلى علم الظاهر وكتب الحديث، لأنه هو الأصل الذي تفرع عليه العبادة والعلم ، وأنت قد بودئت بالفرع قبل الأصل »[2] .

---

(١) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، م . س ، ص ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ .

(٢) المكي ، أبو طالب ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ج ١ ، مصر ، مطبعة البابي الحلبي ، سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م ، ص ٣٢٢ .

إن شرح المكي للعلاقة بين علم الفقه والتصوف فيه بيان واضح لاشتراط تحصيل العلم قبل الدخول في الطرق حتى لا يقود ذلك إلى شطحات تخرج بصاحبها عن الإسلام ، لذا فالتصوف ليس علماً بما للكلمة من معنى ، وإنما سلوك عملي فيه إدامة ذكر وتصفية للقلب ، وتزكية للنفس ، وأخذ بالأشد من الطاعات كي يعرض المتعبد بهذه الطريقة نفسه لنسمات الرحمة الإلّهية ، وليصل إلى مرتبة الولاية وشرح الصدر إن استطاع . ولكن يبقى الفقهاء مرجع الصوفيين في إيضاح الأحكام والحدود ، ولا حاجة للفقهاء بالصوفيين .

فالصوفيون « اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث في معتقداتهم وقبلوا علومهم ولم يخالفوهم في معانيهم ورسومهم ، إذا كان ذلك مجانباً من البدع واتباع الهوى ومنوطاً بالأسوة والاقتداء ، وشاركوهم بالقبول والموافقة في جميع علومهم ولم يخالفوهم ، ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث في الدراية والفهم ، ولم يحط بما أحاطوا به علماً ، فإنهم راجعون إليهم في الوقت الذي يشكل عليهم حكم من الأحكام الشرعية أو حدّ من حدود الدين ، فإذا اجتمعوا فهم في جملتهم فيما اجتمعوا عليه فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية في مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين وتعظيماً لما أمر الله به عباده »[1] .

انطلاقاً من الاهتمام عند الصوفيين بالنفس والقلب والوجدان ، قالوا : ان علماء الفقه هم أهل علم الظاهر ، أما الصوفيون فهم أهل علم الباطن . فالإمام الغزالي وهو واحد ممن وجدوا العلم اليقيني هو

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ١٠ .

ذلك العلم الذي يحصل بنور يقذفه الله تعالى بعد شرح الصدر ، قال في الصوفيين وخصائص طريقهم :

« علمت أن طريقتهم إنّما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . . . فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال »[1] .

فالتصوف هو علم عملي يرتبط بالمجاهدات والرياضات النفسية ، المقترنة بعدم الاهتمام بالدنيا إلا بقدر الحاجة ، لذلك نرى المتصوفة يركزون على الذوق والروح أكثر من الجوارح والحركات الظاهرة ، إن كل اصطلاحاتهم من مقامات وأحوال تدور حول هذه الناحية أي باطن الذات البشرية فهي : توبة وزهد وتوكل ويقين ورجاء وخوف وأنس وطمأنينة . . . الخ .

هذا الأمر جعل الصوفيين يركزون في سيرة النبي ﷺ على جوانب من مظاهر العبادة والأخلاق والتعامل مع الناس أو مع مطالب البدن والحياة العامة، وكذلك وقفوا عند مثل هذه الأمور في سير

---

(١) الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال ، م. س، ص ٣٥ .

بعض الصحابة والتابعين ، فمدار البحث والعمل في الصوفية هو تربية النفس .

والتوجّه إلى النفس يهدف الى مسألتين عندهم :

١ ـ الوصول إلى اليقين ؛ وكلمة اليقين مشتقة من يقن ، ويقن الماء في الحوض معناه استقر . وهذا إشارة إلى استقرار النفس واطمئنانها اللذين يتحققان بزوال الشكوك والظنون بإدامة ذكر الله تعالى ومعرفته .

٢ ـ الوصول إلى نوع من المعرفة والإدراك المباشر بنوع من الإلهام سماه الصوفيون : الإشراق ، وهذا يعقب شرح الصدر الذي ذكر في النصوص القرآنية ، بحيث تحصل المعارف عند الإنسان وكأنها تنبع من ذاته ، وهذه العلوم المنكشفة بشكل مباشر لا تكون إلا لمن أراد الله تعالى بهم خيراً فشرح صدورهم بنور من عنده . فالعلوم إما أن تحصل بالاكتساب والتعلم أو تكون من الذات بما سماه الصوفيون : الإشراق ، والفلاسفة : الحَدْس . فحكاية المرء مع ذلك كحوض يأتيه الماء إما من نبع تفجر في قعره ، أو مما يسيل إليه من خارجه من نبع أو مطر .

نخلص إلى محاولة قيام السرّاج الطوسي بالربط بين الفقه (علم الظاهر) والتصوف (علم الباطن) . يقول الطوسي :

« لا يجوز أن يجرد القول في العلم أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري ويظهر على اللسان ، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر . غير أنّا نقول : إن العلم ظاهر وباطن وهو علم الشريعة الذي يدلّ ويدعو إلى الأعمال الظاهرة

والباطنة ، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة وهي العبادات والأحكام مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك فهذه العبادات . وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء ، وهي الجوارح ، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب ، وهي المقامات والأحوال مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل . . . والخوف والرجاء والصبر والقناعة والتسليم والتفويض والقرب والشوق . . . الخ »[1] .

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ٢٣ .

الفصل الثالث

منطلقات للصوفيين

- من حياة النبي ﷺ وسيرته
- من حياة الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة
- من حياة الحسن البصري من التابعين





منطلقات للصوفيين

لقد اشتهر الزهد منذ البعثة الرسالية للنبي محمد ﷺ في سلوكه وسلوك أصحابه ، واستمر سمة أساسية في سيرة السلف الصالح الذين زهدوا بالدنيا لكي يحبّهم الله تعالى ، وحتى لا يكون التعلّق بالأمور الدنيوية عائقاً يعطل عليهم الثواب الأخروي .

إن هذا الزهد والتقشف الذي اشتهر في العهد الأول بدأ ينشأ بمقابله ـ بعد توسع الفتوحات وازدياد إمكانات البلاد اقتصادياً ـ اهتمام بمظاهر البذخ والصرف وتفنّن بألوان المأكل والملبس ، مما دفع المقتدين بسيرة السلف الصالح إلى الثورة على هذا النمط المعاشي المستحدث،وكان من نتائج ذلك ظهور تسمية«صوفية» و « تصوّف » لأول مرة في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة .

وسواء كان أول من لقب بهذا الإسم هو الكيميائي جابر بن حيان ، أو أبو هاشم الزاهد الذي لم تحمل المصادر التاريخية إسمه الصريح ، كما أنها اختلفت في مكان نشأته ، فقيل كوفي ، وبعضهم قال : إنه بغدادي ؛ إلا أن ما يهمنا هو أن الإسم حادث في ملل المسلمين ، ولا عهد به في القرن الأول ، وهذا ما حمل جماعات من المسلمين على إنكار هذا الاستحداث على أصحابه ، ورفضه تسمية ونظاماً ومنهجاً .

لكن الصوفيين برّروا هذا الإحداث بأن أنماط الحياة عند العرب والمسلمين بعد خروجهم من الجزيرة ، وتوسع الفتوحات ، دفعتهم إلى ذلك لكي يميزوا أنفسهم عن غيرهم، وهذا لم يكن أمراً مطروحاً في بدايات انطلاقة الدعوة لأن الزهد كان سمة مشتركة لكل الناس حكاماً وعامة وخاصة .

وأضاف الصوفيون إلى مقولتهم هذه قراءة سيرة النبي ﷺ ، وصحبه والتابعين، واتخذوا من مظاهر العبادة والزهد في هذه السيرة حجة وذريعة لسلامة ما قاموا به ، وحاولوا أن يجدوا لكل مصطلح صوفي ، أو سلوك صوفي مصدراً في النص القرآني ، أو في السيرة النبوية الشريفة ، أو في سلوك الصحابة والتابعين . فما هي هذه الموارد التي اعتمدوها ؟ .

أولاً : من حياة النبي ﷺ وسيرته

إن حياة النبي ﷺ منذ النشأة الأولى ـ قبل البعثة الرسالية ـ تميّزت بسمات خاصة ، وخصال لم يكن ليدانيه فيها معاصر له ، مما جعل مجتمع كفار قريش يقف موقف تقدير لهذه الشخصية الفريدة ، وكان من مظاهر هذا الموقف أنه قد أطلق على محمد ﷺ لقب : الأمين ـ الصادق ، يضاف إلى ذلك الموقف الحكيم الذي اتخذه النبي ﷺ يوم كان العرب يرممون بناء البيت العتيق في مكة المكرمة ، واختلفت القبائل على صاحب الحق في رفع الحجر الأسود ، وكان مرور النبي في تلك اللحظة فعرضوا الأمر عليه ، وكان الحل المخرج بأن يضعه على عباءته ويحمل أشخاص من كل القبائل أطراف العباءة لرفع الحجر ، وهكذا انتهت المشكلة بسلام . إن مجرد عرض مشكلة بهذا المستوى مع وجود أعيان القبائل على الرسول الكريم يعطينا فكرة عن مدى الاحترام الذي تمتع به ﷺ عند أهل مكة بداعٍ من صفات وخصال شخصية ميّزته عن سواه من الناس .

أما الوجه الآخر في سمات الشخصية قبل البعثة فهو ما دأب عليه النبي ﷺ من تعبد لله تعالى في غار حرّاء حيث كان يعتزل الناس في جاهليتهم ، وانشغالهم بالدنيا ، فيفارقهم شهراً كاملاً وكانت عبادته على ملة جدّه ابراهيم عليه السلام ، أي الحنيفية الأولى . ففي

شهر رمضان من كل عام كان موسم الاعتكاف والاكتفاء باليسير من الزاد زهداً بمطالب الحياة الدنيا ، وسمواً إلى حياة روحية وجدانية تتحقق فيها فرص التأمل في عظيم قدرة الله تعالى ، والتفكر في خلق السموات والأرض ، وتسبيح الخالق ، ويترافق مع ذلك كلّه إعلان يعبّر عن الرفض المطلق لما كان يسود ذلك المجتمع الجاهلي من معتقدات فاسدة ومشوهة . إن هذا الاعتزال في بعض أوقات السنة للناس يحقق صفاء النفس ، ويصقل القلب ، ويعدّ الوجدان لتقبل المواهب والرؤى . ولقد اتخذ الصوفيون من هذا السلوك مضافاً إليه مسألة الاعتكاف وهي من نوافل العبادات منطلقاً لإقرار الانفراد للسالك طريقهم فيما سمّوه « بالخلوة » والتي هي ضرورة عندهم لكل متصوف .

نصل بعد ذلك إلى مظاهر من السيرة بعد الرسالة حيث يتوقف الصوفيون أمام معجزة ومحطة هامة في السيرة النبوية تحقق فيها للنبي محمد ﷺ من المشاهدات والمعجزات ما لم يُعط لغيره حتى من الأنبياء والرسل عليهم السلام ، ألا وهي معجزة الإسراء والمعراج . إن ليلة الإسراء هي معجزة تدلل على الاصطفاء الإلهي لمحمد ﷺ وعلى الرؤيا والمشاهدة من النبي لربه ، والرؤية والمشاهدة عند الصوفيين طموح وحال مطلوبة قد تكون لمن أعطاه الله تعالى مكانة الولي ، ولمن نال رضى الله وحبه تعالى ، وهنا ليس المجال متسعاً لكي نناقش موضوع الرؤية وكيفيتها ، وإنما المعلوم من النصوص أن محمداً ﷺ قد تحققت له مشاهدات في محطات عديدة بمشيئة الله تعالى . ولن ندخل هنا في مناقشة الفرق عن نوع المشاهدات ، وهل هي عيانية حسية أم قلبية فقط ؟ . ونكتفي بما جاء في النصوص من

أخبار ولا داعي للخوض في موضوع ليس من قدرة البشر التحري أو مجرد البحث فيه ، والدليل فيه يبقى أولاً وآخراً النصوص في القرآن والسنة . ولكن ما يهمنا هنا هو أن الصوفيين يسعـون ، دوماً ـ وهم يتنقلون من مرحلة إلى أخرى في الطريق الصوفي ـ للوصول إلى حال المشاهدة والرؤية القلبية ، ولذلـك تعدّ معجـزة الإسراء والمعـراج محطة هامة ومنطلقاً لحال الوجد ، وللسمو الروحي عند المتصوف فوق الحس ومتطلبـات الدنيـا ، وإذا كان المعـراج معجزة خـاصة بالنبي ﷺ ؛ فإن المعراج الروحي أمر ممكن برأي الصوفيين .

ليست معجزة الإسراء والمعراج هي الوحيدة التي كانت رمزاً ومنطلقاً للاصطفاء وللقضاء الإلهي ، وإنمـا تضاف إليهـا معجزات عديدة جاءت في أحاديث متفق عليهـا ؛ وقد روى معـظمها أنس رضي الله عنه ، نذكر منها ما حصل مع الامام علي كرم الله وجهه يوم خيبر إذ كان أرمد العينين فتفل له النبي ﷺ في عينيه ، فشفي بإذن الله وتـوفيقه ، وبعثـه النبي ﷺ حامـلاً الـرايـة في تلك الـوقعة . ومن المعجزات أيضاً إطعام النفر الكثير من كمية طعام محدودة في منزل أبي طلحة ، وكذلك في منزل جابر . ومنها أيضاً أن الماء قد نبع من بين أصابعه ﷺ في قدح ضاق عن أن يبسط يده فيه ، فشرب العسكر كلهم وهم عطاش وتوضؤوا . . الخ .

والمنطلق الآخر المأخوذ مثالاً عند الصوفيين هو ذلك التعريف للدرجـة التي تكون بعـد الإسـلام والإيمـان في الحـديث النبـوي الشريف ، وهي درجة الإحسان التي لا تكون إلا لخاصة أولياء الله تعالى ممن التزموا المطلب المحدد في الحديث عنـد السؤال : ما الإحسان ؟ فكان الجواب من المصطفى ﷺ : « الإحسان أن تعبد

الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك »[1] .

إن درجة الإحسان لن تتحقق لإنسان ، ما لم يحتذِ في حياته حذو الأخلاق الفاضلة للنبي ﷺ التي جاء إجمال وصفها فيما روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ فأجابت : « كان خلقه القرآن » .

فالأخلاق القويمة هي الدلالة على فعل العقيدة والعبادة في نظام حياة الإنسان ، والنبي ﷺ تحقق في سلوكه كمال السيرة ، لأن سنّته هي تشريع ، ولم تكن كذلك إلّا لأنها الكمال السلوكي الذي انفرد به ، وهو في ذلك القدوة والأسوة . ولقد حض ﷺ على ضرورة الالتزام بالحسن من الأخلاق وعدّه مؤشراً على صدق الإيمان ؛ حيث جاء في الحديث الشريف : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً »[2] .

من المظاهر الأخلاقية النبوية التي يعتمدها الصوفيون ذلك الزهد الذي كان يظهر في كل مظهر من مظاهر حياة النبي ﷺ . ينقل الإمام أبو حامد الغزالي في « إحياء علوم الدين » بعض نماذج التقشف والزهد[3] في سيرة النبي الكريم ومنها :

إن النبي ﷺ كان يلبس من الثياب ما وجد ، وما تيسر له ولا يبالي

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد بن حنبل وأبو داود .

(٣) الغزالي ، الإمام أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، تقديم د. بدوي طبانة ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ ، ص ٣٥٤ وما بعدها .

سواء أكان اللباس إزاراً ، أو جبة ، أو رداء ، أو قميصاً أو غير ذلك ؛ وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقّل تثنى طاقين تحته ، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره .

ولقد روي في هذا الباب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه «قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير ، فأثّر الحصير بجلده ، فلما استيقظ جعلت أمسح عنه وأقول : يا رسول الله ألا أذنتنا نبسط لك على هذا الحصير شيئاً يقيك منه ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لي وللدنيا وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[1] .

أما عن طعامه فينقل الإمام الغزالي بأنه ﷺ كان يأكل ما حضر من طعام ، ولا يتورع عن مطعم حلال ، حتى لو وجد تمراً دون خبز أكله ، وكان أحسن الطعام إليه ما كان على الضفف (الضفف : ما كثرت عليه الأيدي) .

ونُقِلَ في موضوع الطعام والزهد فيه عن أبي هريرة أنه قال : «كان يمر بآل رسول الله ﷺ هلال ثم هلال لا يوقد في شيء من بيوته نار لا لخبز ولا لطبخ ؛ قالوا : بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال : بالأسودين التمر والماء . قال وكان له جيران من الأنصار جزاهم الله خيراً لهم منائح (نوق) يرسلون إليه بشيء من لبن»[2] .

---

(١) ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، القسم الثاني ، عني بطبعه وتصحيحه د. أوجين منوخ ، ود . ادوارد سخو ، ليدن (هولندا) مطبعة بريل ، سنة ١٣٢٢هـ ، طبعة مصورة في مؤسسة النصر ـ طهران ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) ابن سعد ، محمد ، م. س ، ص ١١٤ .

أمـا عن تواضعـه فلقـد جـاء في « احيـاء علوم الـدين » : ان النبي ﷺ كان يجالس الفقراء ويؤاكل المسـاكين ، وكان لا يعـرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس وكان يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم . وكان يرقع الثوب ويخصف النعل ، ويساعد أهله في حاجتهم إن كان لديه فراغ لذلك ، ومنها أنه يقطع اللحم معهن .

ومما ينقله ابن سعد في الطبقات من رواية عن أنس بن مالك : كان رسول الله ﷺ إذا لقيه الرجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزعهـا ، ولا يصرف وجهـه عن وجهه حتى يكون الرجل هو الذي يصرفه ، ولم يُرَ رسول الله ﷺ مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له قط .

لقد كان في مقدم من يعاملهم بهذا الأسلوب أهل الصفة الذين كانوا ضيوفاً على المسلمين لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد ، وإذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها .

إن زهـده كان مقـروناً بسخـاء لـم يكن ليدانيـه فيه سـواه وفي « الإحياء » : أنه كان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأوِ إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه . ووصل الأمر كما قال محمد بن سعد في طبقاته إلى أن رسول الله ﷺ توفي يوم توفي ودرعه مرهونة عند رجل بوسق من الشعير .

والرسول ﷺ كـان يدعـو إلى تجنب الإغراق في الشهـوات ،

والميل إلى الدنيا ففي الحديث : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن . حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »[1] .

وفي حديث آخر « عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[2] .

أما عن لبس الصوف وما ينقله الصوفيون أن النبي ﷺ قد لبس الصوف واستحسنه فينقل ابن سعد في الطبقات روايتين :

الأولى : اخبرنا عمر بن حبيب العدوي عن شعبة بن حبيب بن أبي ثابت عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كان يلبس الصوف .

الثانية : أخبرنا يزيد بن هارون وعفّان بن مسلم والفضل بن دكين قالوا عن همام بن يحيى عن قتادة عن مطرّف عن عائشة قالت : جعل للنبي ﷺ بردة سوداء من صوف فلبسها ، فذكرت بياض النبي ﷺ وسوادها ، فلما عَرِقَ فيها ، وجد فيها ريح الصوف تعني ، فقذفها وكان تعجبه الريح الطيّبة .

إن مجمل هذه الصفات يمكن إجماله فيما جاء عن أبي سعيد الخدري وهو يصف النبي ﷺ كما روي عنه : « كان رسول الله ﷺ يعقل البعير ، ويعلف الناضح ، ويقمّ البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معها إذا

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى .

(٢) رواه البخاري .

هي أعيت ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغني والفقير ، ويسلّم مبتدئاً . وكان لا يردّ من دعاه ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر . وكان ليّن الخلق كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساماً من غير ضحك محزوناً من غير عبوس متواضعاً من غير ذلّ جواداً من غير سرف »[١] .

وإذا كان الزهد قد كان سمة سلوك النبي ، وكذلك امر به في الحديث الشريف : « إزهد في الدنيا يحبّك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك »[٢] إلاّ أن هذا لا يعني أن يهجر الإنسان الدنيا ، وان يقعد عن الكسب والعمل ، فاليد العليا خير من اليد السفلى ، ونصيب الإنسان من الدنيا غير ممنوع عنه ،ولكن شرط أن تبقى الدنيا في يد الإنسان ولا تدخل قلبه .

أما الغلو في قهر النفس ، وهجر العيال والعمل ، فهو مما لا يرضاه الله ورسوله ، ولعل القصة المشهورة في الأثر مع عثمان بن مظعون تعطينا فكرة عن هذا الموقف . فلقد روي « أن امرأة عثمان ابن مظعون دخلت يوماً على نساء النبي ﷺ ، فرأيناها سيئة الحال ، فقلن لها : ما لك ، فما في قريش رجل أغنى من بعلك ؟ .

قالت : ما لنا منه شيء ؛ أما ليله فقائم وأما نهاره فصائم .

فدخلن على النبي فذكرن له ذلك ، فلقيه ، وقال له : يا عثمان أما لك بي أسوة ؟

---

(١) الطوسي ، ابو نصر عبد الله بن علي السرّاج ، م. س ، ص ٩٧ .

(٢) رواه ابن ماجه .

فقال : بأبي وأمي أنت ، وما ذاك ؟

قال : أتصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال : إنّي لأفعل .

قال له عندها ﷺ : لا تفعل ؛ إنّ لعينك عليك حقاً ، وإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فصل ونم ، وصم وأفطر»[١] .

فالزهد وعدم الميل إلى الدنيا إذاً ، ليس معناه الخروج من الدنيا ، أو المبالغة في أداء شعائر ونوافل بأسلوب مرهق يتجاوز حدود الممكن ، ولذلك كان المسلمون الأولون بمن فيهم أهل الصفة كما وصفهم النبي ﷺ : فرسان النهار رهبان الليل . يستفاد من هذا أنه لا يقبل في الإسلام الانقطاع عن الدنيا كما فعل عثمان بن مظعون ، بل المطلوب هو الجهاد في سبيل الله ، فالجهاد ضرورة تقترن بمسألة استخلاف الإنسان في الأرض ، وهو بديل إسلامي لما عند الطوائف والملل الأخرى من انقطاع عن الدنيا . فلقد جاء في الحديث النبوي الشريف : « عليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام »[٢] .

ومما يدلل على ضرورة عدم انقطاع المسلم للعبادة والزيادة فيها دون الانتباه إلى ما سوى ذلك ، ما جاء في الحديث النبوي جواباً على سؤال النعمان بن قوقل الذي سأل النبي ﷺ كما روي عن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما : «أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت المكتوبات ، وصمت

---

(١) رواه ابن الجوزي في كتابه : تلبيس ابليس .

(٢) رواه أحمد بن حنبل .

رمضان ، وأحللت الحلال ، وحرّمت الحرام ، ولم أزد على ذلك شيئاً ، أأدخل الجنة ؟ قال : نعم »[1] .

بعد أداء الفرائض المطلوبة وهي مقبولة عند الله من واجب المسلم أن يتجه إلى الجهاد اقتداء بسيرة النبي الكريم ، الجهاد مع النفس بالنوافل المقربة إلى الله تعالى شكراً على ما أعطى الإنسان ، وصفة الشكر مأثورة عن النبي ﷺ عندما كان يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ، فتسأله إحدى أمهات المؤمنين : لم ترهق نفسك وقد غفر لك الله تعالى ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فكان جوابه ﷺ : « وأنا على ذلك أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

ومع هذا الجهاد الروحي كان النبي ﷺ قدوة في القيادة الشجاعة ، والجهاد المتواصل في سبيل الله مما دفع بالإمام علي كرم الله وجهه إلى قوله المشهور : كنا إذا احمر البأس ولقي القوم ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

انطلاقاً من هذا الموقع للجهاد جاء في الحديث الشريف : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد »[2] ولذلك نرى عند المراجعة لتاريخ الطرق الصوفية ، بأن معظمها كان رباطات وزوايا تقام على الثغور المتقدمة في مواجهة الأعداء من أجل ممارسة الجهاد بأعلى مستوياته ، وفي هذه الرباطات كان السالكون يعبدون الله ، ويسعون في حاجتهم بقدر الضرورة ، ويجاهدون في

---

(١) رواه مسلم . أحللت الحلال : فعلته معتقداً حلّه . حرمت الحرام : اجتنبته .
(٢) رواه الترمذي .

الله تعالى حق الجهاد .

إن سيرة النبي ﷺ في كل جوانبها تمثّل أنواراً كاشفة لطريق السبيل السوي ، ومن واجب كل مسلم أن يقتدي بها التزاماً بأمر الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . ولكن بعض هذه المحطات التي ذكرت وهي قليل من كثير ، هي من المحطات التي أراد الصوفيون أن يتخذوا منها حجة من السيرة لتبرير سلامة وصحة ما يقومون به ويلتزمونه .

ثانياً: من حياة الخلفاء الراشدين

١ ـ من حياة أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

يعتمد الصوفيون في جملة مصادر تنظيم طرقهم على سيرة الصحابة الفضلاء ، وفي مقدمهم الخليفة الراشدي الأول ، والمرافق للنبي ﷺ يوم الهجرة الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ .

يؤكد هذا الكلام قول لأحد أوائل المتصوفين ، هو أبو بكر الواسطي الذي قال : « أول لسان الصوفية ظهرت في هذه الأمة على لسان أبي بكر رضي الله عنه إشارة ، فاستخرج منها أهل الفهم لطائف توسوس فيها العقلاء »[١] .

ولعل سبب قول الواسطي هو ما نُقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مال عندي ، فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ، إن سبقته يوماً . قال : فجئت بنصف مالي ، قال : فقال لي رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك ؟ قال : فقلت مثله .

---

(١) الطوسي ، ابو نصر عبد الله بن علي السرّاج ، م . س ، ص ١٦٨ .

وأتى أبو بكر بكل ما عنده : فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ . قال : الله ورسوله . قلت : لا أسابقك إلى شيء أبداً »[1] .

إن هذا السلوك والاطمئنان في توحيد الله تعالى ، وأخذ سنة نبيه دون الالتفات إلى الدنيا هو في أنواع سلوك أهل التوحيد المنفردين بذلك . ويقترن مع هذا ذلك الاطمئنان الذي أظهره أبو بكر لحظة انتشار نبأ وفاة النبي محمد ﷺ ، حيث اضطربت أفئدة الكثير من الصحابة من هول الصدمة ، وكان بعضهم في حالة انفعال شديد ، فإذا بالصديق يواجههم ، وهم قد أصابتهم الخشية على ذهاب الإسلام بموت النبي ﷺ ، فيقول لهم مخاطباً : « من كان يعبد منكم محمداً ﷺ فإن محمداً ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . وهنا يتضح لنا ثبات أبي بكر في توحيده للّه تعالى مما ساهم في تثبيت قلوب الجماعة من الصحابة ، وحملهم على قبول المفاجأة لأن الله تعالى قد أخبرهم عنها في صريح النص القرآني : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[2] .

ومن لطائف سلوك أبي بكر الذي يعتمده الصوفيون ، ما روي عنه أنه قال : « ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل اشتغلت بها عمّا سواها . إحداها قوله : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ

---

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد بن عبد الله ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، م ١ ، بيروت ، دار الكتاب العربي، ط ٢ ، سنة ١٣٨٧هـ ، ١٩٦٧م ، ص ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾(١) ، فعلمت أنه إن أرادني بخير لم يقدر أحد أن يرفع عنّي غيره ، وإن أرادني بشرّ لم يقدر أحد أن يصرف غيره .

والثانية ؛ قوله : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾(٢) فاشتغلت بذكر الله تعالى عن كل مذكور سوى الله .

والثالثة ؛ قوله : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٣) فواللّه ما هممت برزق منذ قرأت هذه الآية »(٤) .

لقد آمن أبو بكر بالله إيماناً ينتهج فيه سنة المصطفين الأخيار ؛ أي إيماناً يتمثّل فيه الإسلام للّه رب العالمين بأعلى درجاته ، وفي هذا الباب حكي عن الصوفي الشهير الجنيد ، أنه قال : أشرف كلمة في التوحيد قول أبي بكر : سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته .

« وعن عبد الله بن عكيم قال : خطبنا أبو بكر فقال :

أما بعد فإنّي أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الإلحاف(٥) بالمسألة ، إن الله أثنى

---

(١) سورة يونس ، آية ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٥٢ .

(٣) سورة هود ، آية ٦ .

(٤) الطوسي ، م . س ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٥) الإلحاف : الإلحاح والشمول .

على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾(١) .

إعلموا عباد الله أن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي . وهذا كتاب من الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره ، فصدّقوا قوله ، وانتصحوا كتابه ، واستضيئوا منه ليوم القيامة ، وإنما خلقكم لعبادته ووكّل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون .

ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب عنكم علمه ، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا ولن تستطيعوا ذلك إلا باللّه ، فسابقوا في مهل آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم »(٢) .

انطلاقاً من هذا الخطاب ينسب إلى أبي بكر أن من أحواله العزوف (الابتعاد) عن العاجلة ، والأزوف (الاقتراب) من الآجلة ، وهذا مما يربط الصوفيين بسيرته لأن من تعريفات التصوف : « أن التصوف تطليق الدنيا بتاتاً ، والإعراض عن منالها ثباتاً »(٣) .

ومما جاء عن أبي بكر أيضاً قوله : لا خير في قول لا يراد به وجه

---

(١) سورة الأنبياء ، آية ٩٠ .

(٢) ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، تحت مراقبة د . محمد عبد المعيد خان ، حيدرأباد الدكن (الهند) ، ط ٢ ، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م ، ص ٩٩ .

(٣) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م ١ ، م . س ، ص ٣٠ .

الله تعالى ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله عز وجل ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم . ومن أقواله ووعظه : ليكن العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله ، ولا يقنط من رحمته عزّ وجل .

أما إذا انتقلنا إلى الجانب العملي في حياته فإننا نرى أنه كان زاهداً متقشفاً التزاماً بما أوصى به . ومما نقرأ عن ذلك أنه بعد أن استلم الخلافة قد « قدم إليه زعماء العرب وأشرافهم ، وملوك اليمن ، وعليهم الحلل والحبر وبرود الوشي المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كانوا عليه »[1] .

ويدخل في أنواع تواضعه وورعه أنه تهيب عند استلام الخلافة أن يعتمد في معاش عائلته على بيت المال لولا أن طلب منه المسلمون ذلك. فلقد جاء «عن عطاء بن السائب قال: لما استخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتّجر بها فلقيه عمر وأبو عبيدة فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟

قال : السوق .

قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟

قال : فمن أين أطعم عيالي ؟

---

(١) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ، م ٢ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، دار الفكر ، ط ٥ ، سنة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م - ص ٣٠٥ .

قالا : انطلق حتى نفرض لك شيئاً . فانـطلق معهما ففـرضوا له »[١] .

وكان فيما فرضوا له لا يريد سوى أن يتوفر له الضروري محافظاً على نمط عيشه قبل أن يتولى الخلافة التي لم تكن لتغيّر في تفكيره أو سلوكه . وفي الأثر « عن حميد بن هلال قال : لما ولي أبو بكر قال أصحـاب رسول الله ﷺ : « افـرضوا لخليفـة رسـول الله ﷺ مـا يغنيه » . فقالوا : نعم ، برداه إذا أخلقهما[٢] وضعهما وأخذ مثلهما ، وظهـره[٣] إذا سـافـر ، ونفقتـه على أهله كمـا كـان ينفق قبــل أن يستخلف . فقال أبو بكر رضي الله عنه : رضيت »[٤] .

إن هذا الزهد كان أبو بكر يريد من ورائه ، أن ينال رضوان الله الذي يحب العبد الذي يزهد في الدنيا ، وقد روي في الأثر أن أبا بكر رضي الله عنه كان يقول : « إن العبد إذا داخله العُجْب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة »[٥] .

لقد تميّز أبو بكر بـالورع المقـرون بالـزهد ، حيث كـان يتقي الشبهات في كل ما يعرض له ، ومنها طعامه ، فيروى أنه « كان لأبي بكر مملوك يغلّ عليه فأتـاه ليلة بطعـام فتناول منـه لقمة ، فقـال له المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ .

(١ ، ٤) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، م . س ، ص ٩٧ .

(٢) أخلقهما : أبلاهما .

(٣) ظهره : دابة يركب عليها أثناء السـفر والانتقال .

(٥) الشعراني ، أبو المواهب عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، مصر ، منشورات البابي الحلبي ، ط ١ ، سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ، ص ١٨ .

قال : حملني على ذلك الجوع ، من أين جئت بهذا ؟

قال : مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني ، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني .

قال : إن كدت أن تهلكني . فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ، وجعلت لا تخرج ، فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء ، فدعا بطست من ماء ، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها .

فقيل : يرحمك الله كل هذا من أجل لقمة ؟

قال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به » ، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة »[1] .

٢ ـ من حياة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

يعود الصوفيون إلى سيرة الفاروق في كثير من مظاهرها لأخذ النموذج الذي يطمحون إلى تقليده ، وقد أجمل السرّاج الطوسي مقصدهم هذا في كتابه اللمع فقال : « لأهل الحق أسوة وتعلّق بعمر رضي الله عنه . . . من اختياره لبس المرقعة ، والخشونة وترك الشهوات ، واجتناب الشبهات ، وإظهار الكرامات ، وقلة المبالاة من لائمة الخلق عند انتصاب الحق ، ومحق الباطل ، ومساواة الأقارب والأباعد في الحقوق ، والتمسك بالأشد من الطاعات »[2] .

لقد انعكس سلوك عمر رضي الله عنه في ولاته ومعاصريه فكان

---

(١) الاصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م ١ ، م. س ، ص ٣١ .

(٢) الطوسي ، م. س ، ص ١٧٤ .

مثالاً يحتذى في الزهد وهجر زينة الدنيا طلباً لثواب الآخـرة . وقد كثرت الرواية حول وصف سلوكه وتواضعه وتقشفه ، منهـا ما قـاله المسعودي : « كان متواضعاً ، خشن الملبس ، . . . واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كلّ يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة رزقها ، وكان أكثر ركابه الابل ، ورحله مشدودة بالليف »[1] .

ومما يذكر في لباسه أنه : « أبطأ يوماً عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج فاعتذر إلى الناس وقال : إنما حبسني عنكم ثوبي هذا كان يغسل وليس عندي غيره »[2] . ولقد روي عن أبي عثمان النهدي أنه قال : رأيت على عمر رضي الله عنه قميصاً فيه إثنا عشر رقعة ، وهو يخطب .

بعد هذا من الهام أن نذكر: إن زهد الفاروق لم يكن بسبب قلة الموارد في أيامه وعدم توفر سبل العيش الرخي ، ولكن ذلـك كان منهجاً واقتناعاً عندما أراد الخير في الآخرة فهجر زينة الدنيا ، ويؤكد ذلك ما جرى بينه وبين ابنته حفصة أم المؤمنين . « عن مصعب بن سعد قال : قالت حفصة لعمر : يا أمير المؤمنين لو اكتسيت ثوباً هو ألين من ثوبك وأكلت طعاماً هو أطيب من طعامك ، فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال : إني سأخاصمك إلى نفسك ، أما كان تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش ، وكذلك أبو بكر فما زال يذكّرها حتى أبكاها. فقال لها: أما واللّه لأشاركنّهما في

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، م. س ، ص ٣١٣ .

(٢) الشعراني ، أبو المواهب ، م. س ، ص ١٨ .

مثل عيشهما الشديد لعلّي أدرك عيشهما الرخي »[١] .

التزم عمر رضي الله عنه هذا الزهد لتعلّقه بالآخرة إلى حدّ دفعه إلى القول كما يروي عبد الله بن عامر : « رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال : ليتني كنت هذه التبنة ، ليتني لم أخلق ، ليت أمي لم تلدني ، ليتني لم أكن شيئاً ، ليتني كنت نسياً منسياً »[٢] وفي موقف مشابه يقال : « مرّ عمر رضي الله عنه على مزبلة فاحتبس عندها ، فكأن أصحابه تأذّوا بها فقال : هذه دنياكم التي تحرصون عليها ، أو تتكلمون عليها »[٣] .

وكان عمر يساوي نفسه مع أقل مواطنيه إمكانية ، فلقد جاء عن أنس بن مالك أنه قال : «تقرقر بطن عمر رضي الله عنه وكان يأكل الزيت عام الرمادة ، وكان قد حرّم على نفسه السمن ، قال : فنقبر على بطنه بإصبعه وقال : تقرقر إنّه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس»[٤] .

كان الفاروق يتصرف وهو خليفة بكل تواضع ومسؤولية مخافة أن يكتب عليه عند الله تقصير ، فكل صغيرة وكبيرة تراه يتصرف بمسؤولية عنها ، حتى الناقة إذا تعثرت أو هلكت على ضفاف دجلة ، ويقال : « كان يحمل جراب الدقيق على ظهره للأرامل والأيتام ، فقال له بعضهم : دعني أحمل عنك ، فقال : ومن يحمل عنّي يوم القيامة ذنوبي »[٥] .

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، م. س ، ص ١٠٨ .
(٢) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، م. س ، ص ١٠٩ .
(٣ ، ٤) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م. س ، ص ٤٨ .
(٥) الشعراني ، أبو المواهب ، م. س ، ص ١٩ .

يضاف إلى ذلك ما يؤثر بأن « عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج في سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل بيتاً آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلـك البيت فإذا بعجـوز عمياء مقعدة ، فقال لها : ما بال هذا الرجل يأتيك ؟

قالت : إنه يتعاهدني منذ كذ وكذا يأتيني بما يصلحني ، ويُخرج عنّي الأذى .

فقال طلحة [لنفسه] : ثكلتك أمك أعثرات عمر تتّبع ؟ »[1] .

ومن الصفات التي تميّز بها عمر الرضا بما يرد على الإنسان من أحوال العطاء أو المنع ، وفي هذه قـال رضي الله عنه : « لـو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبالي أيهما أركب » .

ولقد اقترن عنده الرضا بالبكاء حتى بات له خطان أسودان من البكاء في وجهه . وسبب بكائه تحكّم مقامي الخوف والـرجاء في سلوكه ؛ قال رضي الله عنه : « لو نادى منادٍ من السماء أيّها الناس إنّكم داخلون الجنة كلّكم أجمعون إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون هو . ولو نادى منادٍ أيّها الناس إنكم داخلون النار إلاّ رجلاً واحـداً لرجوت أن أكون هو »[2] .

هذان الخوف والرجاء قادا عمراً رضي الله عنه إلى التزام الأشد من الطاعات ـ كما مرّ سابقاً ـ وكان التزامه مقروناً بالبكاء من خشية الله تعالى . فقد روي عن الحسن رحمه الله أنه « قال : كان عمر رضوان الله عليه يمرّ بالآية في ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى

---

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م . س ، ص ٤٨ .

(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م . س ، ص ٥٣ .

في البيت حتى يعاد للمرض »[1] .

وروي عن علقمة بن وقاص قوله : « كان عمر يقرأ في العشاء الآخرة (يوسف) وأنا في مؤخر الصف حتى إذا ذكر يوسف عليه السلام سمعت نشيجه »[2] .

والأشد من الطاعات عند الصحابة كان يتمثل بما وصفهم به النبي ﷺ بأنهم : فرسان النهار رهبان الليل . وعمر المجاهد في نهاره القائم بخدمة من تعود خدمتهم في ليله وبعد ممارسة العسس ، كان يصلّي ما شاء ، حتى إذا كان من آخر الليل يعظ أهله ويقول : الصلاة ـ الصلاة ويتلو هذه الآية[3] : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾[4] .

هذه هي حياة عمر الفاروق ، عمل ومسؤولية وعبادة ، مع تواضع وزهد ، سعياً لرفع النفس عن المستوى الشهواني وتزكية لها بالعبادة والعمل . والإنسان بحاجة ماسة إلى الوقوف مع النفس لتفحص أحوالها ، والتدقيق فيما أتاه الإنسان حتى لا ينحرف عن الصراط المستقيم فيكون ذلك إيذاناً بهلاكه وخسرانه في الآخرة .

للّه ما أروع الفاروق وهو يقول : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنّه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم »[5] .

(١ ، ٢) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن الخطاب ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١١٧ .
(٣) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن الخطاب ، م . س ، ص ١١٨ .
(٤) سورة طه ، آية ١٣٢ .
(٥) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، م . س ، ص ١٠٩ .

والفاروق كما يصفه صاحب « حلية الأولياء » كان للدين معلناً ولأعمال البر مبطناً . وقد قيل : إن التصوف هو الوصول بما أعلن إلى ظهور ما بطن .

ولم يكن عمر ليرغب في الانقطاع عن الدنيا أو يشجع عليه ، ولذلك يؤثر أنه طرد قوماً وجدهم جلوساً في المسجد وأمرهم بالخروج للكسب وطلب الرزق .

إن عمراً الذي كان فيه ما ذكرنا وهو قليل من خصاله وسيرته دخل دائرة من اصطفاهم الله أولياء له ، فأعطاهم كرامات كان من أشهرها عند عمر رضي الله عنه ما نقل في الأثر عن ندائه لسارية بن زنيم وهو يقاتل على أبواب نهاوند بفارس .

فقد ذُكر أن عمراً كان يخطب ظهر الجمعة في المدينة بالناس ، وفي وسط خطبته صاح : يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل . وسارية وعسكره على أبواب نهاوند قد فارقوا الجبل واندفعوا خلف العدو ، فسمع سارية النداء وعاد مع عسكره وأخذوا الجبل بظهورهم ، فظفروا بالعدو .

وعندما قيل لسارية : كيف عرفت ذلك ؟

قال : سمعت نداء عمر رضي الله عنه ، يا سارية الجبل .

بهذه الكرامة ننهي تلك السمات الطيبة ذات البعد الروحي في شخصية الفاروق الذي تعلّقت به القلوب ، وصبت إلى قراءة سيرته النفوس ، خاصة الصوفية أصحاب الأذواق والمواجيد .

٣ ـ من حياة عثمان بن عفان رضي الله عنه :

لقد ظفر عثمان رضي الله عنه بصلة النسب مع رسول الله ﷺ حيث تزوّج بكل من ابنتيه تباعاً رقية وأم كلثوم ، وبعد وفاة الثانية قال النبي الكريم : لو كانت لي ثالثة لزوجته إياها . وبسبب هذه المصاهرة لقّب عثمان بذي النورين .

امتاز عثمان بالحياء ، وكان « في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد »[١] . كان يقضي نهاره في السعي والجود ، وليله في العبادة وتقديم الطاعات والنوافل قربة للّه تعالى . وامتاز بالصبر على المكاره ، والثبات في الشدائد . فلقد « كان رضي الله عنه مبشراً بالمحن والبلوى ، ومحفوظاً فيها من الجزع والشكوى ، يتحرّز من الجزع بالصبر ، ويتبرر في المحن بالشكر .

وقد قيل : التصوف الصبر على مرارة البلوى ، ليدرك به حلاوة النجوى »[٢] .

إن الصبر المقترن بالثبات والتمكين ظهر عند عثمان يوم حاصره الثائرون عليه في بيته تسعة وأربعين يوماً ، وفي كل هذا الحصار روي بأنه « لم يبرح من موضعه ، ولم يأذن لأحد بالقتال ، ولا وضع المصحف من حجره إلى أن قتل رضي الله عنه وسال الدم على المصحف وتلطخ بالدم ، ووقع الدم على موضع هذه الآية »[٣] : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٤] .

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، م . س ، ص ٣٤١ .
(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م . س ، ص ٥٧ .
(٣) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ١٧٨ .   (٤) سورة البقرة ، آية ١٣٧ .

إن ذا النورين المبشر بالبلوى ، والذي واجه المحنة بثبات وصبر كانت له هذه النتيجة كرامة ترافقت مع مقتله فيها وعد من الله تعالى بأنه سبحانه سيوقع العقاب على من آذوا واحداً من عباده المرضيين ، وأن الله تعالى هو العليم بمجريات الأمور دون سواه ، فالقلوب والنوايا لا يعلمها إلا هو تعالى ، وفي هذه الكرامة تأكيد لما جاء في الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾[1] .

ولكن قد يقول قائل : ما للمتصوفين في نهج عثمان وقد سعى في جمع المال ورغب فيه وهم يبنون طريقهم على الزهد ؟ .

والجواب عند عثمان رضي الله عنه نفسه الذي لم يكن ليجمع المال وهو على رغبة بأمر دنيوي وطموح ذي طابع مادي ، وإنما كان من خصاله السعي في جمع المال وتوفيره لإنفاقه في سبيل الدعوة ، أو في حاجة المسلمين ، وهذا النهج أصبح فيما بعد نمط سلوك لصوفيين سعوا في جمع المال لصرفه في الدفاع عن الثغور ، أو في الدعوة ، أو لقضاء حاجة الفقراء والمحتاجين .

روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال في سبب سعيه في المال : « لولا أنّي خشيت أن يكون في الإسلام ثلمة أسدّها بهذا المال ما جمعته »[2] .

إن من كانوا كعثمان جمعوا المال ، ولكن كان من خصالهم السخاء وحب الإنفاق ، بحيث كانوا يجدون لذة في إنفاق المال في سبيل الله تفوق بكثير لذة جمعه والحصول عليه . واشتهر عثمان بأن

---

(١) سورة الحج ، آية ٣٨ .

(٢) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ١٧٦ ، ثُلمة : حاجة ـ خلل .

الإنفاق كان أحب إليه من الإمساك ، وليس أدلّ على ذلك من أنه قد أنفق متاجراً بالمال مع اللّه ابتغاء رضوانه حين جهز جيش العسرة ، وحين اشترى وحفر بئر رومة .

جاء في الأثر عن عبد الرحمن بن سمرة قوله : « كنت مع رسول الله ﷺ في جيش العسرة فجاء عثمان بألف دينار ، فنثرها بين يدي رسول الله ﷺ ثم ولّى ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقلب الدنانير ويقول : ما يضرّ عثمان ما فعل بعد هذا اليوم »[1] .

وكان من صفاته رضي الله عنه البكاء من خشية الله ، حيث يؤثر عنه أنه كان يبكي عند تلاوة القرآن أو سماعه حتى تبتل لحيته ، وكذلك الحال حين يمر في مقبرة حيث يتذكر الموت وهول يوم المحشر .

هذه أبرز الصفات والمقومات في شخصية الخليفة الثالث التي أخذ منها الصوفيون سنداً في سيرهم وطرقهم .

٤ ـ من حياة الإمام علي كرم الله وجهه :

الإمام علي هو ذلك الفتى الذي تربّى في بيت النبوة ، فلم يتعرف على شيء من أخلاق الجاهلية ، ولا من أنماط سلوك أهلها ، وهو الذي لم يعبد صنماً قبل البعثة الرسالية ، بل نشأ على عقيدة التوحيد . ولذلك كان سريع الاستجابة يوم عرض النبي محمد ﷺ على أعيان قريش أنّه رسول الله إليهم فاستنكفوا عن نصرته ، واذا

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م . س ، ص ٥٩ .

بالفتى ـ وهو الامام علي ـ يصرخ بأعلى صوته : أنا نصيرك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

لقد تميّز بجرأة متناهية وكان مقداماً في مواجهة الباطل وأصحابه ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ومما يؤثر عنه ، أن بعض المقربين منه عرضوا عليه مرة أن يتفرغ جماعة منهم لحراسته وقالوا له : « ألا نحرسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : حارس كل امرىءٍ أجله »[1] .

كان الإمام علي رضي الله عنه حجة في علمه وبلاغته ، وتميّز عن سائر الصحابة بهذه الصفة وجاء في حقه أحاديث نبوية منها : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » ، وآخر في رسوخ قدمه في القضاء والفتيا فيه : « أقضاكم علي » .

يا لفصاحته وتعمّقه وهو يجيب أحد سائليه عن كيفية معرفته الله ! جاء في الأثر : « سئل أمير المؤمنين : بما عرفت ربَّك ؟ فقال : **بما عرّفني نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب في بعده ، بعيد في قربه ، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته ، وتحت كل شيء ولا يقال شيء فوقه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في الأشياء لا كشيء ولا من شيء ، ولا في شيء ولا بشيء ، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره** »[2]

إنه جواب يدلّل على عمق فهم معنى التنزيه للذات الإلّهية ،

---

(١) الشعراني ، أبو المواهب ، م . س ، ص ٢٠ .

(٢) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ١٧٩ .

ويردّ فيه على كثير ممن اشتغلوا بعد عهده بعلم الكلام ، وأضاعوا وقتاً وجهداً في التفكير بالذات الإلّهية وصفات الله تعالى دون أن يستطيعوا إعطاء جواب فيه تنزيه للذات الإلّهية عن الشبه مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[1] .

ويحاول الصوفيون تقليد الإمام علي رضي الله عنه في دعائم إيمانه التي تشكل عندهم منطلقات أساسية لسلوك الطريق الموصل إلى الولاية . هذه المنطلقات الإيمانية حدّدها الإمام عندما قام إليه رجل يسأله عن الايمان ، « فقال : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهاد »[2] .

أما الدنيا فإن الإمام علي رضي الله عنه لم يكن موقفه منها مختلفاً عن موقف النبي محمد ﷺ والشيخين ؛ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . فلقد كان مثالاً في زهده وإقلاعه عن زينة الحياة الدنيا ، لقد أُثر عنه في وصفه للدنيا :

« ألا إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد دنت مقبلة ، ولهذه أبناء ، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا ، والراغبين في الآخرة ، إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً ، وقوّضوا الدنيا تقويضاً ، ألا ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في

---

(١) سورة الشورى ، آية ١١ .

(٢) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ١٨٠

الـدنيـا هـانت عليـه المصيبـات ، ومن راقب الآخـرة سـارع في الخيرات »[1] .

ومما جاء في زهده ما « روي عنه أنه قال لعمر بن الخطاب : إن أردت أن تلقى صاحبك فرقّع قميصـك ، واخصف نعلك ، وقصّر أملك ، وكل دون الشبع »[2] .

وينقل أبو المـواهب الشعراني في « الـطبقات الكبـرى » هذه الأبيات للامام علي بن أبي طالب في الحض على الزهد في الدنيا :

حقيق بـالتـواضـع من يمـوت　　ويكفي المـرء من دنيـاه قـوت
فمـا للمـرء يصبـح ذا همـوم　　وحـرص ليس تدركـه النعـوت
فيـا هـذا سـترحـل عن قـريب　　إلى قـوم كـلامهـم سكـوت

هذه الأبيات تحمل معنى التذكير بالموت وضرورة إعداد العدة لغدٍ لا يعلم إلا الله تعالى موعده ، ولا يضر بالإنسان سوى التعلّق بالدنيا والعمل من أجل مستقبل دنيوي موهوم . ومن أقواله كرم الله وجهه في هذا الباب : « إنّ أخوف مـا أخاف اتبـاع الهوى وطـول الأمل . فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخـرة . . . فإن اليـوم عمـل ولا حسـاب ، وغـداً حسـاب ولا عمل »[3] .

ولكن هذا الزهد لا يعني هجر الدنيا وذلك واضح من الشـطر الثاني في بيت الشعر الأول : ويكفي المرء من دنياه قوت . يستفاد

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، م. س ، ص ٤٣٢ .
(٢) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ١٨١ .
(٣) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م. س ، ص ٧٦ .

من هـذا أن الزهـد هو بمـا زاد عن الحاجـة الشرعيـة ، والضرورة الحياتية ، فإن السعي لما زاد عن الحاجة يُسمى شهوة ، وذلك يقود الى التزاحم على الدنيـا ، والزاهـد لا يكون في هـذا الموقـع من المزاحمة على الدنيا .

والـزهد عنـد الامام علي رضي الله عنـه قـائم على القـاعـدة الإسلامية في التمييز بين الدنيا وهي دار ممر ، وبين الآخرة وهي دار مقر وهي خير وأبقى ، وبالتالي فالحياة الدنيا ليست سوى فرصة أمام الانسان ليتزود فيها بالعمل الصالح قبل الموت . والزهد في مفهومه محدد في قوله واعظاً الإنسان الذي يرغب في ثواب الآخرة :

« فلا يغرّنك سواد الناس من نفسك ، وقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال وحذر الإقلال ، وأمن العواقب ـ طول أمل واستبعاد أجل ـ كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه . . . أما رأيتم الـذين يأملون بعيداً ، ويبنون مشيّداً ، ويجمعون كثيراً كيف أصبحت بيوتهم قبوراً . . واعملوا للجنة عملها : فإن الدنيا لم تخلق لكم دار مقام ، بل خلقت لكم مجازاً لتزودوا منها الأعمال الى دار القرار »[١] .

نصل إلى السؤال : كيف يتمكن الانسان من نفسه حتى لا يزاحم على الشهوات غيره ، ولا يطول في الدنيا أمله ؟ وكيف يستطيع المرء مراقبة نفسه لتزكيتها والتخفيف من عيوبهـا ؟ . والجواب يـأتينا من الإمام علي عندما سئل مرة : « من أسلم الناس من سائر العيوب ؟ قال : من جعل عقله أميـره ، وحذره وزيـره ، والموعـظة زمـامه ،

---

(١) ابن أبي طالب ، الإمام علي ، نهج البلاغة ، ضبط وفهرسة د. صبحي الصالح ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١ ، سنة ١٩٨٠ ، ص ١٩٠

والصبر قائده ، والاعتصام بالتقوى ظهيره ، وخوف الله تعالى جليسه ، وذكر الموت والبلى أنيسه »[1] .

إن هذه الضوابط لحركة من سعى للتخلص من سائر عيوبه لا تخرج عن كونها ضوابط معتمدة عند من أراد سلوك طريق الحق وصولاً إلى تزكية النفس ، وتحقيقاً للقرب من الله تعالى .

يضاف إلى ذلك المفهوم الراقي لأخلاق الخير كما يحددها الإمام في قوله : « الخير كلّه مجموع في أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون في ذكر الله فهو لغو ، وكل صمت لا يكون في فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون في عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون في تعبّد الله فهي فترة ، فرحم الله عبداً جعل نطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة وحركته تعبداً ، ويسلم الناس من يده ولسانه »[2] .

أما واجب المؤمن الصالح الذي يتولى تذكير الناس ، وتدبير شؤونهم فهو أن : « لا يقنّط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من عذاب الله ولا يرخّص في معاصي الله ولا يدع القرآن رغبة منه الى غيره »[3] .

إن هذه اللطائف التي ذكرناها للإمام علي جعلت منه مثال الفقيه العابد الذي صفت نفسه ، ورقت مداركه ، وقويت في الجهاد في الله حق الجهاد عزائمه ، وهذه الأمور جعلت لأمير المؤمنين علي

(١ ، ٢) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ١٨٠ . ١٨٢ .
(٣) الشعراني ، أبو المواهب ، م . س ، ص ٢٠ .

رضي الله عنه « خصـوصية من بين جميع أصحاب رسول الله ﷺ بمعـاني جليلة ، وإشارات لـطيفة ، وألفـاظ مفردة ، وعبـارة وبيان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم وغير ذلـك ، وخصال شـريفة ، تعلّق بها وتخلّق بها أهل الحقائق من الصوفية »[1] .

٥ ـ الصحابي حذيفة بن اليمان :

انفرد حذيفة بين الصحابة بمعرفة علم النفاق ، وبسـرائر هـذا العلم عند من يضمرون ذلك وسرّ تفرّده به كما يقول رضي الله عنه : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني »[2] .

إن السؤال الدائم عن الشرّ وعلاماته ، وخصال صاحبه أورثتـه هذا العلم بحيث أصبح عنده فراسة تساعده على التعرف على من في نفسه نية النفاق أو الشر ، ولهذا عرّفه أبو نعيم الأصبهاني قائلاً : إنه « العارف بالمحن وأحوال القلوب ، والمشرف على الفتن والآفات والعيوب ، سأل عن الشرّ فاتقاه ، وتحرّى الخير فاقتناه »[3] .

كان حذيفة بن اليمان زاهداً يكتفي بما هو ضروري من مطالب الـدنيا دون أن يهجـرها ، وينسب إليـه الشعـراني في « الـطبقـات الكبرى » ، انه قال : « ليس خيركم الذين يتركون الدنيا للآخرة ولكن

---

(١) شرف ، د. محمد جلال ، دراسات في التصوف الإسلامي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٨٠ ، ص ٨٠، ٨١ .
(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م. س ، ص ٢٧٢ .
(٣) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م. س ، ص ٢٧١ .

خيركم الذين يتناولون من كل منهما »[١] .

لكنه مع الحض على أخذ النصيب من الدنيا كان يخاف الميل إلى الهوى والشهوات لأنها لذات آنية تعقبها الآلام في المستقبل القريب ، ويقول في ذلك محذراً الراغبين في الشهوات : « كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزناً طويلاً »[٢] .

استناداً إلى هذا المفهوم كان يرغب في أن يكون في عيشه ممتلكاً لما هو دون الاكتفاء حتى لا تزداد الشهوات والأهواء عند أحد من عائلته ، وكان يرغب في العوز أكثر من الاقتدار ، فيقول : « إن أقرّ يوم لعيني ليوم إذا رجعت إلى أهلي فيشكون إلي الحاجة»[٣] ، لأن الله تعالى في مفهوم حذيفة يحمي المؤمن من الدنيا كما يحمي أهل المريض مريضهم من الطعام الضار له .

٦ ـ الصحابي البراء بن مالك :

البراء رضي الله عنه هو أحد أهل الصفة ممن انطبق عليهم وصف رسول الله ﷺ بأنهم : « فرسان النهار رهبان الليل» . إنّه أحد المجاهدين الشجعان الذين لم يلينوا في مواجهة مع أعداء الله ، وهو أخ لأنس بن مالك رضي الله عنهما .

يُروى عن أنس بن مالك أنه قال : « استلقى البراء بن مالك على

---

(١) الشعراني ، ابو المواهب ، م . س ، ص ٢٥ .
(٢) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ١٨٩ .
(٣) الطوسي ، السراج ، م . س ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ظهره ثم ترنّم ، فقال له أنس : أي أخي ، فاستوى جالساً فقال : أتراني أموت على فراشي وقد قتلت مائة من المشركين مبارزة سوى من شاركت في قتله »[١] .

هذا المجاهد العابد كان زاهداً حتى أن مظهره كان يدعو إلى عدم الاهتمام به حال كثير ممن لم يحالفهم نصيب من الإمكانات المادية ، ولكن هذا لا يقلل من علو مقام البراء عند الله تعالى ، فهو من الذين أوتوا كرامة ابرار القسم إذا ما أقسموا على الله طالبين منه تعالى تحقيق أمر ما .

لقد قال فيه رسول الله ﷺ : « ربّ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه ، منهم البراء بن مالك »[٢] .

ولما كان يوم تستر انكشف الناس فقالوا : يا براء أقسم على ربّك . فقال : « اللهم فإني أقسم عليك لما رزقتني الشهادة ورزقت أصحابي الفتح ، . . فاستشهد البراء وفتح الله عليهم »[٣] .

إن ابرار القسم من الله تعالى ، وهو كرامة للخاصة من عباده أمر طمح إليه كثيرون ممن سلكوا طريق التصوف ، ورغبوا فيه طالما أنه أعطي للبراء رضي الله عنه فقد يعطى لمن بلغ مقامه في الصلاح والجهاد في سبيل الله المقرون بالزهد في الدنيا .

---

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م. س ، ص ٣٥٠ .
(٢) ورد عند السرّاج الطوسي في اللمع ، وعند أبي نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء .
(٣) الطوسي ، السرّاج ، م. س ، ص ١٨٧ .

ثالثاً : من حياة بعض التابعين

الزهد عند الحسن البصري :

الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري واحد من كبار التابعين الذين جمعوا العلم إلى العبادة والزهد والورع . أبوه كان مولى لزيد ابن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وهو من أهل بيسان (نيسابور) دخل في ولاية زيد بعد سبيه . أما والدته فهي خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ .

ولد الشيخ الحسن البصري سنة (٢٠ هـ ـ ٦٤٠ م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة المنورة ، أما وفاته فكانت بالبصرة في رجب ١١٠ هـ ـ ٧٢٨ م . ومما يؤثر عن طفولته أن أمه كانت تغيب في حاجة أحياناً فيبكي فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها ثديها تعلّله به حتى يكون مجيء أمه ، فيدر عليه ثديها فيشربه[1] .

تميّز بالخوف حتى قال « ابراهيم بن عيسى اليشكري : ما رأيت

---

(١) يراجع : ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

أطول حزناً من الحسن وما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة »[1] .

وقال « محمد بن سعد قال يزيد بن حوشب : ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما »[2] .

وكان خوفه مقروناً بقصر الأمل والتواضع ولذلك يؤثر عنه أنّه كان يقول : « يا ابن آدم لو نظرت إلى سير أجلك لأبغضت غرور أملك»[3] لأن «الدنيا مطيتك إن ركبتها حملتك وإن ركبتك قتلتك »[4] وكان الحسن يقسم بالله العظيم : « أنّه ما أعز أحد الدرهم إلا أذلّه الله »[5] .

ومما يدلّل على علو مقامه ، ورسوخ قدمه في العلم والمعرفة أن الإمام علي كرم الله وجهه دخل في خلافته جامع البصرة « فوجد القصاص يقصّون فأخرجهم وكان يقول : هذا بدعة ، هذا منكر حتى جاء إلى الحسن البصري فقال : إنّي سائلك عن شيء فإن أجبت عنه أبقيتك وإلاّ أخرجتك كما أخرجت أصحابك . . فقال : ما صلاح الدنيا ؟ وما فساده ؟ .

فقال الحسن : صلاحه الورع ، وفساده الطمع »[6] .

فقال له الإمام علي رضي الله عنه : إجلس فمثلك يصحّ أن يتكلم .

كان الحسن البصري يمقت التعلّق بالمظاهر وفي هذا ينقل أبو المواهب الشعراني في الطبقات الكبرى رأياً للحسن في لبس الصوف

(١ ، ٢) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، م . س ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٣ ، ٤ ، ٥) الشعراني ، أبو المواهب ، الطبقات الكبرى ، م . س ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٦) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م ٢ ، م . س .

فيه قوله : من لبس الصوف تواضعاً للّه عزّ وجل زاده نوراً في بصره وقلبه ، ومن لبسه للتكبّر والخيلاء كوّر في جهنم مع المردة . ولا يمنع الزهد الإنسان من التمتع بما رزقه الله تعالى من الحلال الطيب ، ولكن المهم عنده أن لا يتعلّق الإنسان بالدنيا ، وأن يكون سخياً بما بين يديه عند الضرورة مبقياً لنفسه قدر الحاجة . وفي باب التعامل مع الدنيا يقول الشيخ البصري موصياً الإنسان المؤمن : « لتسخُ بها نفسك ودع منها الفضل فإنّك إذا فعلت ذلك أصبت أربح الأثمان من نعيم لا يزول ، ونجوت من عذاب شديد ليس لأهله راحة ولا فترة . صاحب الدنيا بجسدك ، وفارقها بقلبك »[1] .

إذن لا بأس من مصاحبة الدنيا وأخذ النصيب منها شرط إخلاء القلب من حبّها حتى لا تفسد على الإنسان صفاء إيمانه ، وتخالط عقيدته ويقينه مما قد ينعكس سلباً على تقواه والتزامه . وعند مجيء الدنيا بما فيها رزقاً حلالاً إلى إنسان فعليه إن عاين أثر نعمة الله عليه أن يقرن ذلك بالشكر فيكون عبداً شاكراً على ما آتاه الله من فضل. يقول الحسن البصري : « ما من رجل يرى نعمة الله عليه فيقول : الحمد للّه الذي بنعمته تتمّ الصالحات ؛ إلاّ أغناه الله تعالى وزاده »[2] .

ولعلّ العلماء والفقهاء، وهم القدوة والموجّهون، هم أشد الناس حاجة إلى عدم الاهتمام بعرض الدنيا الزائل ، والاكتفاء بالنصيب والحاجة ، والميل إلى سرعة الإنفاق القائم على الإيثار لأن المال

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م ٢ ، م. س ، ص ١٤١ .
(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، م. س ، ص ١٤٨ .

المنفق في طريق سليم هو أنفع للمرء من مال مقتنى ويعض عليه بالنواجذ ، لقد نصح الحسن قائلاً « بئس الرفيقان الدرهم والدينار لا ينفعانك حتى يفارقانك »[١] .

لذلك رغب الحسن في الزهد وعدّه من الضرورات للفقيه ، فالفقيه العالم عنده ليس من تعمق في العلوم الشرعية ، وأتقن أصول البحث ، وجمع من المعارف القدر الكبير ، وإنما الفقيه من اقترن علمه بالعبادة الخالصة لله تعالى وبالزهد . يروى أن « عمران القصير قال : سألت الحسن عن شيء ، فقلت : إن الفقهاء يقولون كذا وكذا . فقال : وهل رأيت فقيهاً بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربّه عزّ وجلّ »[٢] .

وإذا ما تابعنا الحسن رحمه الله في وصف العالم المؤمن نراه قد كان بليغاً في وصفه حينما طلب منه أن يكون عاملاً وفق قاعدة الإحسان التي تجعل الإنسان في كل عمل وكأنه يعاين ربّه عزّ وجلّ ، ويكون بين حالي الخوف والرجاء دائماً مع ابتعاده عن التأويل والزعم أن بعض ما جاء في النص القرآني أو الحديث النبوي هو رمز لأمر آخر محملاً النصوص غير مدلولها . إن المؤمن في تعريف الحسن البصري رحمه الله هو : « من يعلم أن ما قال الله عز وجل كما قال ، والمؤمن من أحسن الناس عملاً وأشدّ الناس خوفاً لو أنفق جبلاً من مال ما دون أن يعاين ، لا يزداد صلاحاً وبرّاً وعبادة ، إلّا ازداد فرقاً ،

---

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، م. س ، ص ١٥٣ .
(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، م. س ، ص ١٤٧ .

يقول : لا أنجو »[1] .

إن النشأة الأولى ساهمت في أن يكون الحسن البصري من سادات التابعين فهو كما قلنا نشأ في حجر أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها ، وكان من حظّه أن لقي سبعين من الأولين الذين شاركوا في وقعة بدر الكبرى ، ورأى ثلاثمائة صحابي ، هذا إضافة إلى تلك الطفولة في المدينة المنوّرة مهد انطلاقة الدعوة الإسلامية ، ولقد جعلت هذه النشأة من الحسن البصري رغم أنه من التابعين أقرب إلى مواصفات الصحابي ، ولقد « كان أبو قتادة العدوي يقول : عليكم بهذا الشيخ ، فوالله ما رأينا أحداً لم يصحب رسول الله ﷺ أشبه بأصحاب رسول الله ﷺ منه »[2] .

امتاز الشيخ البصري بالمداومة على التعليم والذكر وكان ذلك الطابع المسيطر على مجالسه وملاقاته، فلم يشتغل بغير ذلك. ومما ينقله أبو طالب المكي في وصفه : « قد كان الحسن البصري أحد المذكرين وكانت مجالسه مجالس الذكر ، يخلو فيها مع إخوانه وأتباعه من النساك والعباد في بيته ، مثل مالك بن دينار وثابت البناني ، وأيوب السختياني ، ومحمد بن واسع ، وفرقد السنجي ، وعبد الواحد بن زيد فيقول : هاتوا انشروا النور ، فيتكلّم عليهم في هذا العلم من علم اليقين والقدرة ، وفي خواطر القلوب وفساد الأعمال ووسواس النفوس »[3] .

---

(١) الأصبهاني ، أبو نعيم ، م. س ، ص ١٥٣ .

(٢ ، ٣) المكي ، أبو طالب ، قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج ١ ، م. س ، ص ٣٠٤ .

والحسن البصري يدعو إلى ضرورة محاسبة النفس في الحياة الدنيا ، وأن يكون للإنسان محطات مع ذاته يزن فيها أعماله لكي يجنّب نفسه الوقوع في الخطأ أو التمادي فيه مما يجلب له الهلاك في اليوم الآخر . ويروى « عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه للّه عزّ وجل ، وإنما خفّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنّما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة »[١] .

لقد كره الحسن البصري سلوك بعض معاصريه ممن كانوا يتكسبون بعلمهم ، أو يقصدون أبواب الحكام وبلاطاتهم سعياً إلى هبات وأعطيات يحصلون عليها ،وعدّه من الأمور المشينة ، ومما ينقل عنه في هذا الباب أنّه « مرّ ببعض القرّاء على بعض أبواب السلاطين فقال : . . جئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم فزهدوا فيكم ، أما أنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يرسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم ، تفرّقوا فرّق الله بين أعضائكم »[٢] .

وهذا الموقف من التعامل مع الحكام اقترن عند الحسن بالشجاعة ، وقوة العزيمة فيما يرضي الله تعالى من غير مبالاة بغضب الولاة وأذاهم طالما كان الإنسان في مرضاة الله تعالى .

وينقل ابن خلّكان[٣] أنّه :

---

(١) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، م . س ، ص ١٥٦ .

(٢) ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، ج ٣ ، م . س ، ص ١٥٨ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج ١ ، م . س ، ص ٣٥٥ .

لما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق وأضيفت إليه خراسان ، وذلك في أيام يـزيد بـن عبـد الملك ، استدعى الحسن البصـري ومحمد بن سيرين والشعبي وذلك سنة ١٠٣ هـ فقال لهم : إن يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، وأخذ عليهم ميثاقهم بطاعته ، وأخذ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ما تـرون فيكتب إليَّ بالأمر من أمره فأقلّده ما تقلّده من ذلك الأمر ، فما ترون ؟ .

فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيه تقية .

فقال ابن هبيرة : ما تقول يا حسن ؟ .

فقال : يا ابن هبيرة خف الله في يزيـد ، ولا تخف يزيـد في اللَّه ؛ إنّ اللَّه يمنعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وأوشك أن يبعث إليك مَلَكاً فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبر ، ثم لا ينجيك إلاّ عملك .

يا ابن هبيرة : إن تعصَ الله فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله وعباده فلا تركبنّ دين اللَّه وعباده بسلطان الله ، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

الفصل الرابع

المقامات والاحوال

١ ـ الذكر
٢ ـ مقام التوبة
٣ ـ مقام الورع
٤ ـ مقام التوكل
٥ ـ حال المحبة
٦ ـ حال الخوف
٧ ـ حال الرجاء




المقامات والأحوال

المقام والحال : اصطلاحان يستخدمهما الصوفيون للتدليل على تدرّج السالك للطريق الصوفي من مكانة إلى أخرى ، ولما يتعرض له في تدرجه هذا في المقامات من أحوال تأتيه من نسمات الرحمة الإلهية .

المقامات هي مكاسب تحصل للإنسان المؤمن ببذل المجهود ، وهي مراحل يرتقي فيها المريد في طريقه إلى التمكين والاطمئنان القلبي لتتحقق له مكانة بين الخاصة من المصطفين الأخيار. ويقول السرّاج الطوسي في « اللمع » :

« إن قيل ما معنى المقامات ؟ يقال : معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع إلى الله عز وجل »[(١)] ، وقال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾[(٢)] وقال : ﴿ وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾[(٣)] . من المقامات عند الطوسي : التوبة ـ الورع ـ الزهد ـ

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٤١ .

(٢) سورة ابراهيم ، آية ١٤ .

(٣) سورة الصافات ، آية ١٦٤ .

الفقر ـ الصبر ـ الرضا ـ التوكل . . . الخ .

أما الحال : فهي معنى يرد على القلب من غير تصنّع ولا اكتساب ، والأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، وهي تكون ميراثاً يلي العمل الصالح المقترن بصفاء القلب ، أو امتناناً من الله تعالى على العبد، ولكنها لا تدوم وإذا دامت تحولت من حال إلى مقام .

وقد جاء في « اللمع » : « وأما معنى الأحوال فهو ما يحلّ بالقلوب أو تحلّ به القلوب من صفاء الأذكار ، وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم . . . وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات»(١).

من الأحوال: المراقبة ـ القرب ـ المحبة ـ الخوف ـ الرجاء ـ الشوق ـ الأنس ـ الطمأنينة ـ المشاهدة ـ اليقين . . . الخ .

المقام إذن هو مقام الإنسان بظاهره وباطنه في حقائق الطاعات ، وأما الحال فهي ما يتعرض له القلب من نسمات الرحمة الإلهية والصدر من الشرح ولا يدوم .

أما في « الرسالة القشيرية » فلقد جاء : أن المقام « ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب ؛ مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلّب ، ومقاساة تكلف . فمقام كل أحد : موضع إقامته عند ذلك ، وما هو مشتغل بالرياضة له .

وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفِ أحكام ذلك المقام . . . ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله

(١) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٤٢ .

تعالى إياه بذلك المقام ، ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة »[١] .

أما الحال عند الصوفية فهي « معنى يرد على القلب ، من غير تعمد منهم ، ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم . . . فالأحوال : مواهب . والمقامات : مكاسب .

وقالوا : الأحوال كإسمها ، يعني أنّها كما تحلّ بالقلب تزول في الوقت »[٢] .

وجاء في تعريف للدكتور قاسم غني : « مقامات التصوف إنما هي من الأمور الاكتسابية والاجتهادية ، ومن جملة الأعمال التي هي باختيار السالك وإرادته ، بينما الأحوال من مقولة الإحساسات والانفعالات الروحية ، ومن الحالات والكيفيات النفسية الخاصة مما ليس باختيار الإنسان بل هو من جملة المواهب والأفضال النازلة على قلب السالك من لدن الله من غير أن يكون للسالك أدنى تأثير في نزوله على قلبه أو محوه عن خاطره »[٣] .

بعد هذه التعريفات التي أوردناها ، وقبل أن نتحدث عن تعريفات لبعض المقامات والأحوال ، لا بدّ من البدء بالحديث عن الذكر لأنه المحطة الأساسية في الطريق إلى صفاء القلب وشرح الصدر ، مما يساعد السالك على الترقي في المقامات أو التعرض للأحوال.

---

(١) القشيري ، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن ، الرسالة القشيرية ، ج ١ ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ط ١ ، سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ، ص ١٩١ .

(٢) القشيري ، م . س ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٣) غنّي ، د . قاسم ، تاريخ التصوف الإسلامي ، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت ، وراجعه د . أحمد ناجي القيسي ، ود . محمد مصطفى حلمي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٧٢ م ، ص ٢٩٣ .

الذكر وأهميته والموقف منه

إن الخاصة من عباد الله تعالى المخلصين إذا ما فرغوا من أداء فرائضهم أتبعوا ذلك بالنوافل ، ومن أبرز النوافل ذكر الله تعالى وتسبيحه وحمده ، بحيث لا يتحرك الإنسان إلا بما يرضي الله ، ولا يحرك لسانه إلا بذكره مما يولّد اطمئناناً في النفس ، ولذة روحية لا تعادلها لذة .

ومن خصوصيات العباد الذاكرين عدم الانشغال بسوى الاتجاه إلى الله بكامل الهمة ، وهذا ما جاء به وصفهم في القرآن الكريم : ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[1] .

والذّكر حسب تعريف ابن منظور في لسان العرب : ذكر الشرف والصيت . ورجل ذكير : جيد الذكر والحفظ . والذّكر في التنزيل وفق الآية : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ ؛ أي القرآن شرف لك ولهم . وقول الله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ؛ أي شرفك . والذّكر : الصلاة للّه والدعاء إليه والثناء عليه . وقيل : الذكر

---

(١) سورة النور ، آية ٣٧ .

الصلاة ، والذكر قراءة القرآن ، والذكر التسبيح ، والذكر الدعاء ، والذكر الشكر ، والذكر الطاعة .

وقد تكرّر ذكر « الذّكر » في الحديث ، ويراد به تمجيد الله وتقديسه وتسبيحه وتهليله والثناء عليه بجميع محامده . ولذلك يقال : فلان يذكر الله ؛ أي يصفه بالعظمة ويثني عليه ويوحّده . وربما لهذا عرّف الله تعالى سورة الفاتحة بأنها أم الكتاب ؛ فهي تحوي الحمد والثناء والتوحيد والإقرار بالعبودية لله . ولهذا جاء عن النبي ﷺ أن سورة الإخلاص تعدّل ثلث القرآن ، ففيها التوحيد والتنزيه للذات الإلّهية عن كل تصورٍ قد يخالط أوهام بعض الناس .

أما في دائرة المعارف الإسلامية فلقد جاء تعريف الذكر بالقلب أن معناه : إحضار الشيء في الذهن . والذكر باللسان ومعناه : التلفظ بالشيء . وتنطق هذه الكلمة في الاصطلاح الديني « ذكر » وهي تمجيد الله بعبارات محدّدة معيّنة تردّد بحسب ترتيب الشعائر ، ويكون ترديدها جهراً أو سراً . وهذا المعنى يمكن أن نأخذه من تلمّس معنى الآية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[١] .

إن في هذه الآية أمر من الله تعالى لعباده بأن يذكروه ويشكروه ، وأن يكثروا من ذلك على ما أنعم عليهم . ولقد جعل الله تعالى فريضة الذكر بخلاف باقي الفرائض الإسلامية بلا تحديد ، وذلك لسهولة ممارسة الذكر على العباد ، فكل عمل وقول يكون في مرضاة

---

(١) سورة الأحزاب ، آية ٤١ ، ٤٢ .

الله وسبيله هو ذكر .

وهو بلا حدّ رحمة بالإنسان لعظم الأجر فيـه . وفي قول لابن عباس رضي الله عنهما : إن الذكر حقّ على كل مكلّف ، ولم يعف أحد من ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله . ولكن من شروط الذكر أن يقترن بالإخلاص ، فالذكر هو إخلاص واستدامة في القلب في كل الأحوال .

لقد جاء الأمر بالذكر المقترن بالإخلاص في أكثر من آية قرآنية ، وكانت في صيغة الأمـر أو الحض على ذلك ، أو في إطـار الوعـد بالثواب الكبيـر ؛ من هذه الآيـات قول الله تعـالى : ﴿فَٱذْكُـرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾[1] .

حملت هـذه الآية دعـوة من الله لعباده كي يـذكروه بـالطاعـة والسمع ، والإنابة إليه ، حتى يذكرهم سبحانه بالمغفرة والثواب . فالذكر بهذا المعنى هو طاعة الله ، ومن لم يطع الله لا فائدة من ذكره حتى لو أكثر بلسانه قراءة القرآن والتسبيح والتهليل .

ليس الذكر إذن ترداد باللسان فحسب ، وإنما أصل الذكر التنبّه بالقلب للمذكور ، والتيقظ له . وسُمّي الذكر باللسان ذكراً لأنه دلالة على الذكر القلبي ، وما من عبد ذكر الله مخلصاً له إلا ذكره الله عزّ وجلّ برحمته .

إن الذكر المترافق مع أداء الفرائض هو أفضل أنواع السلوك كي ينال الإنسان مرضاة الله ، والذكر الذي يقوم على الإخلاص القلبي

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٥٢ .

يحصّن الإنسان من الإنحراف ، ويقوّي حالة الضبط الذاتي ، فمن كان ذاكراً للّه لا يخالفه . ومن موجبات الذكر المحصّن للإنسان من الزيغ أن يقترن بالعلم ، وتفريغ القلب إلا من الله تعالى ، عندها يحصل الإنسان على مقام مفضل فيه على سواه وفق ما جاء في الآية : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾(١) .

والذين يذكرون الله عن إخلاص وعلم ، يترافق ذكرهم مع تفكّر في آيات الله ومخلوقاته ، فيكون الذكر سبيلاً لكي يعرفوا كمال قدرة الله ، وإحكام صنعه للعالم ؛ وبهذا تحصل التذكرة لأولي الألباب فيزيدهم ذلك إيماناً ، فتسكن قلوبهم ، وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن . فالذكر هو مفتاح الحال عند الصوفيين ، وهو عند كل المسلمين السبيل إلى اطمئنان القلب بما تأمّل وعرف الذاكر من آيات اللّه عن بصيرة ، وفي ذلك جاء قول الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(٢) .

قد يكون من أسباب حصول الاطمئنان القلبي للذاكرين ما جاء من أحاديث نبوية تعد الذاكرين بمقام هام عند ربهم ، ومنها أن الذكر يقود إلى الحصول على رياض الجنة في اليوم الآخر ، فلقد روى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا مررتم برياض الجنّة فارتعوا . قالوا : يا رسول الله وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر »(٣) .

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٤٥ .
(٢) سورة الرعد ، آية ٢٨ .
(٣) رواه الترمذي .

كيف لا يكون ذكر الله سبيلاً لدخول رياض الجنّة ، وقد جاء الوعد صريحاً للذاكرين بأنهم سيكتبون عند الله مع المرضيين المكرمين ، وأنه تعالى سيشملهم برحمته ، ورحمته هي الثواب والمكافأة ، وفي هذا الباب روى أبو سعيد الخدري وأبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يقعدُ قومٌ يذكرونَ الله إلا حفّتهم الملائكةُ وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله سبحانه فيمن عنده »[1] .

وإذا كان الذكر يشمل كافة أعمال العبد التي تكون في مرضاة الله إلا أن الذكر كما تعارف عليه المسلمون يقصد به تسبيح الله وحمده ، وترديد عبارات معينة في التوحيد كترديد عبارة « لا إلّه إلا الله » مرات عديدة ، أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عدداً معيناً من المرات ، وهكذا يكون لكل ذاكر وفق طريقته نمطُ محددٌ من الذّكر ، ولكن الجامع المشترك هو الحضّ على الذكر الذي جاء في تحديده ما رواه سمرة بن جندب : « ان رسول الله ﷺ قال : أحبّ الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إلّه إلا الله ، والله أكبر لا يضرّك بأيهن بدأت »[2] .

وفي حديث نبوي متفق عليه ، جاء عن فضل الذكر والتسبيح : « من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» .

إن الذاكر قد ينفعل أثناء أدائه للذكر ، فيكون في حالة وجدانية

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

خاصة لا يشاركه فيها أحد ويشترط عليه في مثل هذه الحال أن لا يصدر منه أو عنه ألفاظ أو حركات فيها تجاوز للضوابط الشرعية ، وحدود الله ، وأن لا يتحول الانفعال والوجدان الخاص والحالة الروحية ، إلى شطحات تسيء للغاية المرجوة من العبادة والذكر .

فالذكر يجب أن يكون مقترناً بالتفكر وتمالك النفس ليكون فيه اعتبار للإنسان من تفكره في قدرة الله تعالى . والذكر المنضبط هو ما صورته الآية الكريمة : ﴿ٱلَّذِينَ يَـذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـاماً وَقُعُـوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (١) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩١ .

مقام التوبة

التوبة عودة إلى الله تعالى وطاعته بعد معصية أو ذنب ، وتكون العودة عادة مقرونة بندم ومحاسبة للنفس ، حتى لا تحصل أخطاء الماضي في المستقبل ، والله تعالى وهو الرؤوف الرحيم بعباده دعاهم إلى محاسبة أنفسهم والتوبة التي لا رجوع بعدها . وهو سبحانه يتلقّى في الليل مسيء النهار إذا تاب ، ويتلقّى مسيء الليل في النهار إذا تاب ، والملائكة تسرع حين توبة عبد من عباد الله بزف الخبر إلى الله عز وجل الذي يسر بعبده التائب العائد إلى طاعته .

لقد خاطبنا الله تعالى في باب الترغيب بالتوبة في قوله العزيز : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١] والتوبة المطلوبة من العبد عرفها النص القرآني بالتوبة النصوح التي لا رجوع للمعصية بعدها ، وفي هذا كان الخطاب الإلهي : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾[٢] .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٣٩ .
(٢) سورة التحريم ، آية ٨ .

لهذا عدَّ الصوفيون التوبة منطلقاً أساسياً لسلوك الطريق ، وهي شرط لا بدّ منه ، والعبد التائب ينتقل من مقام إلى مقام فينسى ذنبه بعد الندم وما ينسيه الذنب هو ذكر الله تعالى والتوجّه إليه بالكلية ابتغاء مرضاته .

عرف القشيري التوبة بقوله : « التوبة أول منزلة من منازل السالكين ، وأول مقام من مقامات الطالبين . وحقيقة التوبة في لغة العرب : الرجوع . يقال : تاب أي رجع . فالتوبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه »[1] .

أما شروط التوبة عند القشيري حتى تصح فهي ثلاثة :

« ١ ـ الندم على ما عمل من المخالفات . ٢ ـ وترك الزَّلة في الحال . ٣ ـ والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي .

فإن للتوبة أسباباً وترتيباً وأقساماً ؛ فأول ذلك : إنتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة»[2] .

فإذا فكر الإنسان في سوء صنيعه ، وتفحص قبيح سلوكه حصلت في قلبه حالة النية على التوبة والرجوع ، والإقلاع عما هو أسوأ إلى الأحسن ، في هذه الحالة يكون الله بعون العبد فيساعده على الهداية وتصحيح العزيمة وتجويد الكسب .

وللتوبة كأي عمل شروط رئيسة وأخرى ثانوية رغم فائدتها . عن

(١) القشيري ، الرسالة القشيرية ، م . س ، ص ٢٥٣ .

(٢) القشيري ، الرسالة القشيرية ، م . س ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

هذا الموضوع في التوبة يقول أبو القاسم الأصفهاني : « فإن قال فعلت ولا أعود فهذا هو التوبة . . . وللتوبة شرائط فرضاً ونفلاً ؛ ففرضها ترك الذنب مع عدم العودة إليه ، ونفلها التأسف لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما فات من العصيان »[١] .

وحاول بعض الصوفيين أن يميّز بين نوعين من التوبة ؛ وهو الحسين المغازلي عندما سئل عن التوبة ؛ « فقال : تسألني عن توبة الإنابة أو توبة الاستجابة ؟ فقال السائل : ما توبة الإنابة ؟ قال : أن تخاف من الله تعالى من أجل قدرته عليك . قال : فما توبة الاستجابة ؟ قال : أن تستحي من الله لقربه منك »[٢] .

والتائب عندهم من اكتفى بالضروري من كل شأن من شؤون حياته ، وشغل نفسه بذكر الله ، ومحاسبة النفس . يقول أبو طالب المكي : « ينبغي لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم في كل طرفة ، ويدعوا كل شهوة ، ويتركوا الفضول ، وهي ستة أشياء : ترك فضول الكلام ، وترك فضول النظر ، وترك فضول المشي ، وترك فضول الطعام والشراب واللباس ، ولا يقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات »[٣] .

---

(١) الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب ، الذريعة الى مكارم الشريعة ، مصر ، مطبعة الوطن ، سنة ١٢٩٩هـ ، ص ١٣١ .

(٢) الكلاباذي ، أبو بكر محمد بن اسحق البخاري ، م . س ، ص ٦٤ .

(٣) المكي ، أبو طالب ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، م . س ، ص ٣٧٠ .

مقام الورع

الورع هو مقام شريف يرقى إليه من كان متصفاً بالتقوى وخشية الله تعالى، مما يدفعه إلى تحرّي كل ما يعرض له من أعراض الدنيا متفحصاً . فإن وجد فيه أدنى شبهة غادره تجنباً للوقوع في الحرام ، لأن من حام حول الحمى كاد أن يقع فيه . ولفضل الورع وأهميته في حفظ الـــدين قـال النبي صلى الله عليـــه وسلم : « مــلاك دينكم الورع » .

ويقول السرّاج الطوسي في وصف أهل الورع : « منهم من تورع عن الشبهات التي اشتبهت عليه وهي ما بين الحرام البيّن والحلال البيّن ، وما لا يقع عليه إسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك فيتورع عنهما»(١) .

وممن اشتهر بالورع الشديد أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي لم يكن ليأكل من طعام قبل أن يسأل عنه ، ويتحرّى مصدره فإن وجد فيه شبهة امتنع عن تناوله . ومن ذلك قصته مع خادمه الذي قدم له طعاماً أخذه بدل رقي مارسه لقوم في جاهليته وأكـل منه أبـو بكر

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٤٤ .

لقمة، ولما عرف تقيأها، وأقسم أنها لو لم تخرج إلا مع نفسه لأخرجها.

والدافع إلى الورع هو التبرؤ من مظالم الخلق بأكل حقوقهم حتى لا يكون لأحد على المرء مظلمة يقاضى عليها في يوم الحساب. وهذا الأمر يجب أن يكون دافعاً للإنسان بألا يقدم على أي شيء أصابته ريبة حوله، أو حاك في صدره شك فيه.

ومما جاء عن الورع عند القشيري: «قال يحيى بن معاذ: الورع على وجهين:

- ورع في الظاهر؛ وهو أن لا تتحرّك إلا للّه تعالى.
- وورع في الباطن؛ وهو أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى.

وقال يونس بن عبيد: الورع: الخروج عن كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة»[1].

فالإنسان الورع هو الذي يقدم على الإنفاق والتصرّف بالحلال الطيب وهو ذاكراً للّه تعالى ومراقبته له، فيرعى حق الله وحق العباد حتى في حلاله. سئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافي، «فقال الحلال الذي لا يُعصى الله فيه والحلال الصافي الذي لا ينسى الله فيه، فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذي سئل عنه الشبلي رحمه الله فقيل له يا أبا بكر ما الورع؟ فقال: أن تتورع أن لا يتشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين»[2].

---

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، م. س، ص ٢٨٦.

(٢) الطوسي، السرّاج، م. س، ص ٤٦.

مقام التوكّل

إن التوكّل على الله تعالى هو دليل الإيمان الصادق، وهو حصن يمنع الإنسان من السقوط أمام المصاعب ، لأنّه يفتح أمامه أبواب الأمل والرجاء بنصر الله وتوفيقه ، فما من مؤمن أعدّ العدّة المطلوبة منه إلا ومن واجبه أن يقرن ذلك بالتوكل ، ومن توكل على الله جعل له الله مخرجاً .

لذلك جاء الأمر في القرآن الكريم بالتوكل في أكثر من آية منها : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(1) وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(2)، وفي آية ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(3) .

قال الجنيد عندما سئل عن التوكل : هو اعتماد القلب على الله تعالى في جميع الأحوال . لكن التوكل لا يعني بحال من الأحوال أن يقعد الإنسان عن الكسب ، وأن يهجر العمل ، ليشكل بذلك عالة

---

(1) سورة المائدة ، آية ٢٣ .

(2) سورة ابراهيم ، آية ١٢ .

(3) سورة الطلاق ، آية ٣ .

على أهله ومجتمعه ، فهذا السلوك مدعاة للتخاذل والهروب الذي يشلّ الطاقات في المجتمع ، ويجعل منه لقمة سائغة لكل طامع . ليس في الإسلام ما يأمر بالتواكل وضعف الهمة ، ولا بد من التوكل المقرون بقوة العزيمة والعمل وهذا ما فعله النبي ﷺ وصحبه ، وكلنا يعلم أن النبي العربي محمد ﷺ لم يأكل من صدقة أو زكاة وقبل الهدية .

النصوص القرآنية تحض المؤمنين على ضرورة السعي والعمل لكسب الرزق الحلال الطيب ، ومما جاء في هذا الباب قول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً ﴾(٣) .

وجاء الأمر مطلقاً للمؤمنين بأن يكون إنفاقهم ومعاشهم مما يكسبون بكدهم وليس من المسألة ، والطلب من الناس ، وهذا الأمر ورد في الآية الكريمة : ﴿ يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الملك ، آية ١٥ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ١٠ .

(٣) سورة النبأ ، آية ١١ .

(٤) سورة البقرة ، آية ٢٦٧ .

إنه من الخطورة بمكان أن نشجع الناس على التواكل ، والانقطاع عن العمل فذلك مما يتنافى مع الإسلام الذي أمرنا بالسعي في الكسب وعدّ السعي في حاجة الأهل ضرباً من ضروب الجهاد .

وللسلف الصالح في سلوكهم كثير من نماذج الاعتماد على النفس في الحاجات ، ويكفي أن نذكر أن أبا بكر في اليوم الثاني لبيعته نزل إلى السوق يحمل قماشاً يتَّجر به لتأمين معاش أهله ، ولم يتوقف إلا بعد أن فُرِضَ له من بيت المال . والمثال الثاني هو ما حصل يوم الهجرة عندما آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وكان أن تآخى عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الأنصاري فأخذه سعد معه إلى بيته وعرض عليه ماله وأهله وقال له : اختر ما تريد وما أعجبك . فأجابه ابن عوف جواب المسلم المتميّز بالعفة : لا حاجة لي في مالك ولا في عيالك ، بارك الله لك في مالك وعيالك ، دلّني على السوق . والقصد بذلك أن يدلّه على السوق ليتاجر وعبد الرحمن كما هو معلوم كان يعمل في التجارة .

وفي حديث للنبي ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه »[(١)] .

وفي حديث آخر : « أحلّ ما أكل العبد من كسب يده وكل بيع مبرور»[(٢)] .

فالمؤمن هو من راعى أمور الدنيا ملتزماً أمر الله تعالى : ﴿ وَلَا

(١ ، ٢) المكي ، أبو طالب ، قوت القلوب ، م . س ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] وهو الذي يعدّ للآخرة زادها من التقوى ، وللدنيا زادها من الكسب والسعي . وفي هذا يقول الحارث بن أسد المحاسبي وهو من الصوفية : « العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة ، وخيار هذه الأمة الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم »[2] .

وإذا ما تجاوزنا المؤثرات الهندية والرهبانية المسيحية التي أدت ببعض الصوفية إلى تشجيع الناس على المسألة والاعتماد في الرزق على الآخرين مما لا يتوافق مع الدين الحنيف فإننا نرى أن الصوفيين المعتدلين قد : « أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ وتثبت وتحرّز من الشبهات ، وأنها تُعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار . وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه »[3] .

وقد تجاوز بعض الصوفية هذا ليقولوا بالكسب مع الادخار ، وأن السعي في الادخار مع التوكل لا يضر بل هو قوة تكون في خدمة الدعوة والصالح العام عند اللزوم ، ويكفي أن نعطي مثالاً تجهيز جيش العسرة من قبل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

ويقول أبو طالب المكي : « لا يضر الادخار مع صحة التوكل إذا كان مدّخراً للّه وفيه ،وكان ماله موقوفاً على رضى مولاه ، لا مدخراً

---

(١) سورة القصص ، آية ٧٧ .
(٢) الأصبهاني ، أبو نعيم ، حلية الأولياء ، م ١٠ ، م . س ، ص ٨٨ .
(٣) الكلاباذي ، م . س ، ص ٥٦ .

لحظوظ نفسه وهواه ، فهو حينئذ مدّخر لحقوق الله التي أوجبها عليه ، فإذا رآها بذل ماله فيها ، والقيام بحقوق الله لا ينقص مقامات العبد ، بل يزيدها علواً »[١] .

بعد هذا الإيضاح الذي ذكرنا فيه قليلاً من كثير من الشواهد ندعو كلّ من يطمع في كدّ غيره لأن يخرج إلى الكسب متوكلاً على الله ، وأن لا يأخذ من موقعه الصحيح أو المصطنع شباكاً يصطاد بها ما ليس من عمل يده ، فيصبح ذا ثروات طائلة ، تفسد عليه آخرته ودنياه .

---

(١) المكي ، أبو طالب ، م . س ، ص ٣٧ .

حال المحبة

محبة الله تعالى والإقلاع عن إشراك أحد مع الله بالحب الخالص مرتكز هام في عقيدة التوحيد ، لأن من أحب الله مخلصاً يحب غير الله ورسوله من الأهل وسواهم ، ولكن يحبهم للّه وفي الله .

والإنسان الذي يعرف قيمة الحب للّه ورسوله يتجاوز أعراض الدنيا إذا ما دعاه هذا الحب للجهاد ، والتفريط بالممتلكات الدنيوية ابتغاء مرضاة الله وإطاعة أوامر النبي ﷺ . في موقف فاصل يوم الهجرة حيث اضطرب بعض المسلمين ، وأضعف التعلّق بأعراض الدنيا والأهل عزيمتهم على إكمال الجهاد ، أتى الخطاب الإلّهي حاسماً لكل من تصيبه مثل هذه الحال في قول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[١] .

---

(١) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

إن حال المحبة للّه تعالى ورسوله ﷺ إذا اقترن بمقام الزهد في الدنيا يدفع الإنسان لأن يكون مجاهداً في الله حق الجهاد ، والجهاد هـو الامتحان الذي يؤكد فيه الإنسان قـطع علائقـه بالهـوى المتبع والشهوة ، ويؤكد فيه إيثاره للجهاد على راحة النفس وتعلّقها بالأهل والمال وغير ذلك .

فالحب الإلّهي ليس بحال من الأحوال حالة وجدانية ذاتية يدّعيها الفرد ، وإنما هي حال وجدانيـة يصدقهـا العمل ورأسـه الجهاد . والناس في الحب صنفان : مؤمنون متعلّقون بالله تعالى ، وصنف أخذوا من الدنيا ما يحبونه كحب الله تعالى . وهذا السلوك يفسد عليهم دنياهم فيكونون عبيداً لما يحبونه من الأنداد والآخرة ، لأن الله تعالى غاضب عليهم بسبب فعلهم هذا . وقد وصفت الآية الكريمة الصنفان : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾(١) .

الحب الإلّهي شوق من العبد للقاء ربّه ومرضَاته ، وهذا يستلزم أن يكون للمؤمن أسوة حسنة برسول الله ﷺ ، يأخذ ما جاء به ، وينتهي عما نهاه عنه ، ويستفاد هذا الفهم للحب من قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(٢) جاء عن أسباب نزول هذه الآية أنها في قوم من أهل الكتاب ، من نصارى بني نجران صرحوا عن حبهم للّه ، فطُلب

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٦٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٣١ .

منهم أن يعطوا الدليل ، والدليل هو اتباع رسالة محمد ﷺ . وبذلك نقول : الإعلان والتصريح لا يكفيان ويلزمهما تنفيذ ما جاء به الإسلام .

أورد القرطبي في تفسير قولٍ للصوفي سهل بن عبد الله عن حب الله تعالى يقول فيه : « علامة حبّ الله حبّ القرآن ، وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ ، وعلامة حب النبي حبّ السنّة ، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حبّ الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبلغة (الضرورة) » .

والسؤال الآن كيف يكون الحب الإلّهي ؟ ومتى يحصل تبادل الحب بين الله والعبد ؟ . إن بداية المسألة في أن يتجه العبد بكليته إلى الله تعالى فلا يصغي بسمعه إلا الى ما يرضي الله ، ولا يسرّح بصره إلا بما أمر به الله تعالى ، ولا يسعى بقدميه إلا إلى ما أمره الله أن يسعى إليه . وهذا الأمر نستفيده من حديث الولاية الذي يعتمده الصوفيون منطلقاً رئيساً في سلوك الطريق ، وهو حديث قدسي وجاء فيه : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ؛ يكره الموت ، وأكره إساءته »[١] .

---

(١) رواه البخاري .

يستفاد من الحديث أن أولياء الله الصالحين يحبّهم الله بعد أن أخلصوا في حبهم وتقربهم له تعالى ، وإذا ما نالوا هذه الدرجة الهامة تصبح أعمالهم كلّها بتوفيق الله ورضوانه ، لأن حبهم للّه تعالى يحملهم على طاعته ، والانتهاء عن كل ما يكره صدوره منهم من الأفعال .

والمؤمن المحب للّه تعالى تتحقق له لذة وحلاوة تطغى على وجدانه وقلبه لا تكون لغيره من عباد الله . وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ؛ أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار »(١) .

إذا أحب الله عبده شمله برحمته وعنايته ، أما العبد فإذا أحب الله تعالى أطاعه ، واشتاق للقائه فتصبح الدنيا هيّنة عنده ، ويتمنى لقاء ربه مما يجعله مجاهداً قوي العزيمة في سبيل الله لا يهاب الموت ، ولا يطول أمله بالدنيا .

وعن عدم خوف الموت يتناقل الصوفيون خبراً مأثوراً فيه : ان ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت عندما جاء لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ .

فأوحى الله تعالى للملك : هل رأيت محبّاً يكره لقاء حبيبه ؟ .

فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض .

---

(١) رواه البخاري .

والمحبة ليست لمطلب أو غاية إلا ابتغاء مرضاة الله ويجب أن تبنى على الإدراك والمعـرفـة ، فمن تفكـر في خلق السمـوات والأرض ، وعرف الله تعالى بأنه على كل شيء شهيد كان هو المحب المتعقل المتحكم بكل حركة من حركاته، وليس الحب ادعاء لحلولية أو اتحاد وفناء وانجذاب وغير ذلك من الشطحات والانحراف . فالحب عند المسلمين هو حب قائم على الفكر والذكر والاعتدال في تناول النصيب من الدنيا .

بعد ذلك لا بأس أن يكون مع الحب حالة روحية ونزعة وجدانية نحو المحبوب الأسمى ؛ الله تعالى . في هذا قال الدكتور أبو العلا عفيفي : بأن حال المحبة عمل « من أعمال الإرادة والوجـدان ، لا العقل ، ظهرت في أكبر وأعلى مظهر من مظاهر الإرادة والوجدان ، وهـو الحب ، لا الحب المادي الـذي يهدف إلى إشبـاع شهوة أو حاسة ، بل الحب بأعمق وأتم معـانيه ؛ أعني الإفصـاح عن أقوى النزعات الروحية في الإنسان ، واتجاه هذه النزعـات نحو الأصـل الذي صدرت عنه »[١] خالقها سبحانه .

إن المحب المخلص لله تعالى ، والمجاهد فيه حق الجهاد لا المنقطع للرياضيات الروحية كبدعة الرهبانية ، يصطفيه الله تعـالى ويؤيده ويبادله الحب . في هذا جاء الحديث : « إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال له : إنني أحب فلاناً ، فـأحبه . قـال فيحبّه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء فيقول : ان الله يحب فـلاناً ، فأحبّوه ، فيحبّه أهل السماء . قال : ثم يجعل له القبول في الأرض .

---

(١) عفيفي ، د . أبو العلا ، م . س ، ص ٢٠ .

وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض »(١) .

وفي القرآن الكريم ، كذلك ، أن من آمنوا وعملوا الصالحات يجزيهم الله تعالى حباً وتكريماً منه ، ويجعلهم مكرمين بين عباده . وهذا مستفاد من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾(٢) .

واذا كان الحب الإلهي في هذا الموقع الهام ، فكيف يمكن الوصول اليه ، للتنعم بنسمات الرحمة الإلهية التي ترافق حب الله تعالى للعبد الصالح ؟ .

يقول السيد عبد الله شبّر : « اعلم أن الطريق إلى تحصيل المحبة وتقويتها تطهير القلب عن شواغل الدنيا وعلائقها والتبتل إلى الله بالذكر والفكر ، ثم إخراج حب غير الله منه ، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يسع للخلّ مثلاً ما لم يُخرج منه الماء ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

وكما الحب في أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة لغيره ، فبقدر ما يشتغل لغير الله ينقص منه حب الله »(٣) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم ومالك بن أنس . (٢) سورة مريم ، آية ٩٦ .

(٣) شبّر ، السيد عبد الله ، الأخلاق ، دقّقه جواد شبّر ، بيروت ، دار المرتضى ودار الكتاب الإسلامي ، بدون تاريخ ، ص ٢٦٨

حال الخوف

الخوف حال تصيب المؤمن عند قراءته النصوص التي جاءت في باب الترهيب والوعيد ، ولعل من دوافع نشأة حركة الزهاد ، ومن ثمّ الصوفيين في التاريخ الإسلامي ما تدفع إليه النصوص المرهبة والمتوعدة من الخوف والخشية من عذاب اليوم الآخر لمن عصى أو ضلّ عن سبيل الله .

وفي مقدمة أنواع الترهيب والوعيد تلك الحال التي تكون للمشركين بالله تعالى ، ففي القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ، إِنَّما هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾[١] .

ومن المؤمنين صنف يملك المعرفة والعلم ، وتراه إذا ذُكر الله تعالى تذكر قدرته سبحانه وفَضْله على العباد ، وتذكر عظمة الخالق وقدرته فأشفق من ضعفه ودخل الخشوع قلبه فارتفعت درجة تقاه واعتماده على الله والاستعانة به تعالى في كل شأن من الشؤون ، وهؤلاء وصفتهم الآية الكريمة : ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ

---

(١) سورة النحل ، آية ٥١ .

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَـاتِـهِ زَادَتْهُمْ إِيمَـاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1] .

وإذا كان الجاهل بالشيء عدواً له ، كذلك الحال في موضوع الإيمان فالجاهل بوحدانية الله وقدرته تراه في غيِّه وقسوة قلبه ، أما العارف بالله المطلع على قدرته من رؤية آياته في المخلوقات فتراه في حالة الخشية من غضب الله تعالى ، وتراه يسعى دوماً لنيل مرضاته فيزيده ذلك إيماناً ، ولذلك جاء وصف العلماء بأنهم أكثر خشية في الآية : ﴿ إِنَّما يَخْشَىٰ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[2] .

والطوسي يقول : « الخوف على ثلاثة أوجه : وقد ذكر الله تعالى الخوف وقرنه بالايمان بقوله : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[3] فهذا خوف الأجلة ، وقوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[4] فهذا خوف الأوساط ، وقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمَاً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾[5] فهذا خوف العامة »[6] .

قال أبو سعيد الخرّاز رحمه الله في كلام له : « شكوت إلى بعض العارفين الخوف ، فقال لي : إنّي أشتهي أن أرى رجلاً يدري أيش الخوف من الله ؟ ثم قال : إنّ أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٢ .
(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٧٥ .
(٤) سورة الرحمن ، آية ٤٦ .
(٥) سورة النور ، آية ٣٧ .
(٦) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٦٠ .

من الله شفقة منهم على أنفسهم وعملاً في خلاصها من أمر الله عز وجل . . . . وقال بعضهم : علامة خوف الله تعالى هيجان القلوب وشدة الذعر من الترهيب ، وقال ابن خُبيق : الخائف عندي من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان »[١] .

إن المؤمنين بالله تعالى لا يأمنون طرفة عين من مجيء عذاب الله لخطأ أو زلّة قد يقعون فيها ، ولذا فإن الخوف يعطيهم صفة الحذر من النفس ، ومن وساوس الشيطان . وحالة الخوف هذه تحفظهم من ارتكاب المعاصي ، وتزيد درجة الورع عندهم ، ويعبرون عن ذلك بالسجود للّه تعالى إعلاناً للطاعة ويقرنون سجودهم بالبكاء ، وهو التعبير عن الخوف والخشوع فهؤلاء وصفتهم الآية : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾[٢] .

ولأهمية الخوف الذي هو حصن من الوقوع في المعاصي أو الأخطاء حث النبي ﷺ ورغب به في الحديث الشريف : « عينان لا تمسّهما النار : عين بكت من خشية اللّه ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » .

وكان الخوف والبكاء من الصفات التي عرف بها الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فيؤثر أن عثمان بن عفان كان إذا ذكر الموت أو مرّ في مقبرة يبكي حتى تبتل لحيته . وذكرنا آنفاً أن الحسن البصري من التابعين وعمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي رحمهما الله ، كانا ممن اشتهر بالخوف والبكاء ، حتى قيل عن شدة

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٦٠ ، ٦١ .
(٢) سورة مريم ، آية ٥٨ .

خوفهما : كأن النار لم تخلق إلا لهما .

إن خوف السلف الصالح ـ لا بد ـ سببه معرفتهم للّه تعالى ، ولعظيم سلطانه وقدرته ولذلك فإن السالك لطريق التصوف ككل مؤمن ملتزم ، كلما ازداد معرفة بالله « ازداد خوفه من الله ، لأن حال الخوف متولدة عن المعرفة . ومن المسلم به أن الخوف من المعاني وأنه متعلق بالمستقبل ، لأنه من الواضح أن الخوف إما خشية حدوث مكروه ، واما خوف فوات شيء محبوب ، وفي كلتي الحالين مرجعهما الى شيء يمكن حدوثه في المستقبل . وحاصل رأي الصوفية في موضوع حال الخوف هو أن الخوف نتيجة علم السالك ومعرفته »[١] .

ومما أورده القشيري[٢] عن الصوفيين في تعريف حال الخوف :

قال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا عن الطريق .

وقيل : ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه ، إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه . وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف ، وعلامة الخوف قصر الأمل . وابراهيم ابن شيبان يقول : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشهوات منه ، وطرد رغبة الدنيا عنه .

---

(١) غني ، د . قاسم ، م . س ، ص ٤٩٩ .

(٢) القشيري ، الرسالة القشيرية ، م . س ، ص ٣٠٨ وما بعدها .

حال الرجاء

ورد في القرآن الكريم والسنّة النبوية نصوص عديدة تؤمّل الإنسان برحمة الله وعفوه وغفرانه ، وهو ما يدخل تحت باب الترغيب . ويصل أمر الترغيب في النص القرآني الى حد وعدَ اللهُ تعالى العبادَ بأنه قد يغفر لهم أي ذنب يقترفونه ما عدا الشرك . فلقد خاطب الله تعالى الناس في قوله العزيز : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾(١) .

إذا قصّر الإنسان أو وقع في خطأ قد يصيبه الهلع ، ويعتريه القلق ، وتزداد عنده المخاوف من ذنبه وهول ما ينتظره من عذاب مقابل ما اقترفه ، ولكن الإنسان لا بد وأن يتوقع الخير والرحمة من الله تعالى الذي خاطبنا بقوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢) .

فالإنسان لو عاش حال الخوف دون الرجاء لأصيب بتدمير

---

(١) سورة النساء ، آية ٤٨ .

(٢) سورة الزمر ، آية ٥٣ .

نفسه ، وازدياد وساوسه مما قد يشلّ حركته ، ولكن الترغيب والوعد بغفران الله يشكل حصناً يمنع الإنسان من السقوط . ولقد أورد القشيري[١] عن الرجاء :

قيل : هو النظر الى سعة رحمة الله .

قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء استبشار بوجود فضله (الله) .

وقال : ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجوّ المحبوب .

فالإنسان المؤمن المتمّ للفرائض لا بد وأن يدفعه الى العمل رجاء بفضل الله ورحمته ، وأمل برضوانه تعالى ، وهذه الحال من الرجاء تزيد من تعلّق المحبّ (العبد) بالمحبوب (الله) وحال المحبة كما أسلفنا هي من أفضل أحوال المؤمن .

لذلك فإن « كل من يتوقع الحسنى في المستقبل يعتبر راجياً مؤملاً . ويرى الصوفية أن عبادة الله إذا كانت متجهة بفضله وكرمه خير من العبادة التي تكون بسبب خوف العقوبة ، لأن الأمل يولد المحبة »[٢] .

من المفيد أن يكون العبد دائماً بين حالي الخوف والرجاء . فالخوف يردعه عن المعصية ، والرجاء يدفعه الى العمل مما يضبط سلوكه ويحصّنه ، ويجعله فيمن رضي عنهم الله وأحبهم . فالمؤمن يراعي قاعدة الالتزام بفعل المعروف والانتهاء عن المنكر خوفاً من النار وطمعاً بجنات النعيم .

---

(١) القشيري ، الرسالة القشيرية ، م . س ، ص ٣١٨ وما بعدها .

(٢) غنّي ، د . قاسم ، م . س ، ص ٥٠١ .

إن المؤمنين العابدين الذاكرين هم من واظبوا على عبادة الله مما جعل جنوبهم لا تستقر على مضاجعها رغبة ورهبة ، فلقد وصفهم رب العالمين في قوله تعالى : ﴿ إِنَّما يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(١) .

نخلص من ذلك الى ما جاء عند الطوسي : « قال بعضهم : الخوف والرجاء جناحا العمل لا يطير إلا بهما ، وقال أبو بكر الوراق : الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم ، والرجاء على ثلاثة أقسام : رجاء في الله ، ورجاء في سعة رحمة الله ، ورجاء في ثواب الله »(٢) .

وقال أبو بكر الواسطي في أهمية اجتماع حالي الخوف والرجاء : « الخوف له ظلم يتحيّر صاحبه تحته يطلب أبداً المخرج منه فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج الى مواضع الراحة فغلب عليه التمنّي ولا ينفع حسن النهار إلا بظلمة الليل ، وفيهما صلاح الكون ، فكذلك القلب مرة في ظلم الخوف أسير فإذا طرق طوارق الرجاء فهو أمير ، والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض »(٣) .

---

(١) سورة السجدة ، آية ١٥ ، ١٦ .
(٢) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٦٢ .
(٣) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٦٣ .

الفصل الخامس

نظرة اسلامية

١ ـ الكرامات بين الإثبات و التلبيس
٢ ـ محطات ومواقف من تاريخ التصوف
٣ ـ لا رهبانية في الإسلام





الكرامات بين الإثبات والتلبيس

ميّز المسلمون بين الآية والمعجزة والكرامة وقالوا فيها : إن الآيات للّه تعالى ، والمعجزات للأنبياء صلوات الله عليهم ، والكرامات للأولياء وللأخيار من المؤمنين . وإذا كانت الآيات أمراً لا يحتاج إلى تفضيل وشرح ، فإن المعجزات لا بدّ من تعريفها وتحديدها حتى تتميّز عن الكرامات .

ولا يسمى الأمر معجزة « حتى يكون مما ينفرد الله عز وجل بالقدرة عليه ، ولا يصح دخوله تحت قُدر الخلق من الملائكة والبشر والجن . . . وإذا ثبت ذلك ، وجب العلم بأن معنى وصفه بأنه معجز للرسل أنّه مما لا قدرة للعباد عليه ، أو مما لا يصح لهم قدرة عليه »[1] .

فالرسول سفير بين الله تعالى وبين خلقه ، وإبلاغهم بأنه رسول الله يقتضي إظهار المعجزات على يده حتى تكون حجة له عليهم كي يصدّقوه ، ويلتزموا ما جاءهم به . ولولا المعجزات التي تكون من

---

(١) ابن الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات ، عني بتصحيحه ونشره الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، بيروت ، المكتبة الشرقية ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٩ .

الله تعـالى لأنبيائـه لمـا استـطاع النـاس التمييـز بينهم وبين بعض المشعوذين الأدعياء للنبوة الكاذبة الذين يظهرون بين حين وآخـر ، ويفترون على الله الكذب .

لذا فإنّه « لا دليل يفصل بين الصادق والكاذب في ادّعاء الرسالة إلّا الآيات المعجزة ، كما أنه لا دليل يعلم بالنظر فيه كون العالم عالماً إلا الأفعال المحكمة المتسقـة . وإذا كان ذلـك كذلـك ، ثبت أن الموجب المقتضي لظهور المعجزات على أيدي الرسل هو كـونهم رسلاً له سبحانه وادّعاؤهم له لذلك وإخبارهم عنه »[1] .

وإذا كان المسلمون قد أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء إلا أن كرامات الأولياء تختلف عن معجزات الأنبيـاء من جهات عـديدة . ومما ذكره الطوسي في هذا الاختلاف :

« ١ ـ إن الأنبياء عليهم السلام مستعبدون بإظهـار ذلك للخلق والاحتجاج بها على من يدعوهم إلى الله تعالى فمتى ما كتموا ذلك فقد خالفوا الله تعالى في كتمانها . والأولياء مستعبدون بكتمان ذلك عن الخلق وإذا أظهروا من ذلك شيئاً للخلق لاتخـاذ الجاه عندهم فقد خالفوا الله تعالى وعصوه بإظهار ذلك .

٢ ـ والوجه الآخر في الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام ، أن الأنبياء عليهم السلام يحتجّون بمعجزاتهم على المشركين ، لأن قلوبهم قاسية لا يؤمنون بالله عز وجل . والأولياء يحتجّون بذلك على نفوسهم حتى تطمئن وتوقن ولا تضطرب ولا تجزع عند فوت الرزق

---

(١) ابن الباقلاني ، م . س ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

لأنها أمّارة بـالسوء جاحدة مشركة مجبولة على الشك ، ليس عندها يقين بما ضمن لها خالقها من الرزق .

٣ ـ والوجه الثالث في الفرق بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام أنّ الأنبياء كلما زيدت معجزاتهم وكثرت يكون أتمّ لمعانيهم وأثبت لقلوبهم كما كان نبينـا ﷺ قد أعـطي جميع مـا أعطي الأنبيـاء من المعجزات ثم زيادة أشياء لم يعط أحد غيره مثل المعراج . . . . ان الأنبيـاء عليهم السلام كلمـا زيدت لهم من المعجـزات يكون أتم لمعانيهم وفضلهم ، وهؤلاء الذين لهم الكرامات من الأوليـاء كلما زيدت في كراماتهم يكون وجلهم أكثر وخوفهم أكثر حذراً أن يكون ذلك من المكر الخفي لهم والاستدراج ، وأن يكون ذلك نصيبهم من الله عز وجل وسبباً لسقوط منزلتهم عند الله عز وجل »(١) .

هذا الوجه الأخير ، وهـو ضرورة الحـذر من العبد إذا زيـدت كراماته يدفع بالأولياء والصالحين من المؤمنين أنهم « إذا ظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا للّه تذلّلاً وخضوعاً وخشية واستكانة»(٢) .

وعند الكلاباذي تمييز من نوع آخر بين المعجـزات وكرامـات الأولياء ، فلقد قال : « فالذي للأنبياء معجزات وللأولياء كـرامات وللأعداء مخادعات . وقال بعضهم : **إن كرامـات الأولياء تجـري عليهم من حيث لا يعلمون**، والأنبياء تكون لهم المعجزات وهم بها عالمون وبإثباتها ناطقون ، لأن الأولياء يخشى عليهم الفتنة مع عدم العصمة ، والأنبياء لا يخشى عليهم الفتنة بها لأنهم معصومون »(٣) .

---

(١) الطوسي ، السرّاج ، م . س ، ص ٣١٨ وما بعدها .

(٢ ، ٣) الكلاباذي ، م . س ، ص ٤٦ .

والكـرامات أمـر ثابت في النص القـرآني في أكثر من مـوضع وحالة . من هذه الكرامات ما جاء في القرآن عن قصة الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب مع سليمان عليه السـلام ، في قول الله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْـلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١). وَالرجل الذي كان له هذا العمل الخارق ليس نبياً بل مؤمناً عنده علم الكتاب ، وبالتالي فإن ما كان على يده هو كرامة من الله وليس معجزة .

ومن الكرامات التي وردت في القرآن الكريم كرامة مريم عليها السلام ، التي لم تكن نبية ولها معجزة ، وإنما هي واحدة من سيدات نساء العالمين اصطفاها ربّها فـأعطاهـا من الكرامـات ومنها قـوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَـالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إن ٱللَّهَ يَرْزِقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢). وهنا حضور الطعام والرزق إلى مريم ما هو إلا كرامة من الله تعالى .

ومن كرامات مريم عليها السلام أيضاً خطاب الله تعالى لها :

---

(١) سورة النمل ، آية ٤٠ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٧ .

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾[1] فالنخلة في غير موسمها ما أن هزتها مريم حتى نزل منها ثمر صالح للجني والقطف ، وما ذلك إلا كرامة من الله لها .

ويمكننا أن نذكر الفتية المؤمنين الذين زادهم الله تعالى هدىً ، وأمرهم أن يأووا إلى الكهف ، وهم ليسوا أنبياء ،وكل فارق حصل لهم يدخل في باب الكرامات وسنذكر واحدة من كراماتهم أخبرنا عنها الله تعالى بقوله : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ مَنْ يَهْدِ ٱللَّهِ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾[2] .

إن من كراماتهم وهم في الكهف وفيه فجوة يمكن لنور الشمس أن يدخلها فيكون منه الأذى ، فإذا بالشمس تميل عن فجوة الكهف عند الشروق وتتجاوزهم وتميل عنهم من جهة شمال الداخل من الكهف عند الغروب ، وكل ذلك تكريم من الله تعالى لمن اصطفاهم .

هذا من كرامات الأمم السابقة ومن المسلم به أن للأخيار المقربين من أتباع محمد ﷺ كرامات بقدر ما جاء لمن سبقهم من صالحي الأمم إذا لم يكن أكثر . فللأولياء الله تعالى كرامات وتأييد من

---

(١) سورة مريم ، آية ٢٥ .

(٢) سورة الكهف ، آية ١٧ .

الله ببركة اتباع النبي ﷺ والإقتداء به . والله قادر على تأييدهم بملائكته ، أو بروح منهم ، أو بأن يقذف في قلوبهم أنواره فيتم لهم شرح الصدر .

وهذه الكرامات تكون إما لحجة في الدين ، أو لحاجة المسلمين ، أو لكي تطمئن نفوسهم ، ولذلك فالكرامات لا تكون على نوع واحد . وليست الكرامة شرط الولاية بل « ينبغي أن يعرف : إن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل ، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج ، أتاه منها ما يقوّي إيمانه ويسدّ حاجته ، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها ، لا لنقص ولايته ، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة »(١) .

والثابت في سِيَرِ السلف الصالح أنه قد أمدَّهم الله بكرامات تواتر نقلها . من هذه الكرامات قصة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لما ذهب بثلاثة أضياف إلى بيته ، وجعل لا يأكل لقمة من قصعته إلا ربى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله ﷺ ، وجاء إليه أقوام كثيرة فأكلوا منها وشبعوا .

ومن الكرامات أيضاً قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جيش سارية بن زنيم عندما كان على أبواب نهاوند فناداه من على المنبر في المدينة : يا سارية الجبل . فأخذ سارية وعسكره الجبل بظهورهم وكان لهم النصر بسبب ذلك .

---

(١) ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، م . س ، ص ١٣٨ .

ومما يؤثر من الكرامات أن أُسيد بن حُضير وعتاب بن بشير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج.

تُعطى الكرامات للأخيار من أنواع متعددة من الخوارق ، وقد وصفها ابن تيمية : « إن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى »(١) .

إن المكاشفات أمر ممكن الوقوع لا يجوز لأحد إنكاره ، ومن الأمثلة على ذلك الصحابي حذيفة بن اليمان ومعرفته بالمنافقين . لذا نقول : « ليس لمنكر أن ينكر على أولياء الله ما يقع منهم من المكاشفات الصادقة الموافقة للواقع »(٢) ، ففي ذلك حديث النبي ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله»(٣)، ولكن لا بد من عرض المكاشفات على مقاييس الشرع للتثبت منها ، وبالتالي « لا يجوز للولي أن يعتقد في كل ما يقع له من الواقعات والمكاشفات أن ذلك كرامة من الله سبحانه ، فقد يكون من تلبيس الشيطان ومكره .

بل الواجب عليه أن يعرض أقواله وأفعاله على الكتاب والسنّة ، فإن كانت موافقة لها فهي حق وصدق وكرامة من الله سبحانه ، وإن كانت مخالفة لشيء من ذلك ، فليعلم أنه مخدوع ممكور به ، قد طمع فيه الشيطان فلبس عليه »(٤) .

---

(١) ابن تيمية ، كتاب التصوف ، م . س ، ص ٢٩٨

(٢ ، ٣ ، ٤) الشوكاني ، قطر الولي على حديث الولي ، تحقيق وتقديم د . ابراهيم ابراهيم هلال ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ ، ص ٢٤٩ .

قد يقود تلبيس الشيطان بعض الناس عند قوة وجدهم ، وغليان عاطفتهم إلى أنواع من التعبير والحركات المستغربة التي لا تتوافق مع أحكام الإسلام ، مما يسمى « شطحات » ، وعندهم أنها رموز ، وأن ظاهرهم لا يعبّر عن حقيقة حالهم . ولكن هذا السلوك المسمى شطحات هو ما أفسد على كثيرين عقيدتهم فقادهم إلى ردة عن الإسلام .

بهذا يصبح من واجب المؤمن الصالح « وإن بلغ في الولاية إلى أعلى مقام وأرفع مكان ، أن يكون مقتدياً بالكتاب والسنّة ، وازناً لأفعاله وأقواله بميزان هذه الشريعة المطهرة ، واقفاً على الحدّ الذي رسم فيها ، غير زائغ عنها في شيء من أموره »[1] .

ويجب على من أعطي كرامة من الله تعالى أن يتصرف بها وفق ضوابط وأحكام الإسلام ، حتى تكون له دليل رفعة مقام ، وإلا إن اغتر أو شطح كانت فتنة له ، وخسر مرضاة الله .

يقول ابن تيمية : « وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان بها على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ، ازداد بذلك رفعةً وقرباً إلى الله ورسوله ، وعلت درجته . وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش ، استحق بذلك الذمّ والعقاب .

. . . ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه ، وتارة بسلب التطوعات

---

(١) الشوكاني ، م . س ، ص ٢٥٠ .

فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة ، وتارة ينزل إلى درجة الفساق ، وتارة يرتد عن الإسلام »(١) .

تدخل في باب الشطحات التي تصل إلى درجة الانحراف ، والارتداد عن الإسلام الذي ذكرناه آنفاً تلك البدعة التي يزعم أهلها أنهم إذا بلغوا درجة من الصوفية تسقط عنهم الفرائض ، علماً أن حديث الولاية الذي رواه البخاري جاء فيه : « ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه » .

لذلك نسأل من أية شريعة أتى هؤلاء ببدعة سقوط الفرائض ؟ . وتأثراً بمذاهب وعقائد فاسدة ، أو انطلاقاً من نوايا سيئة أخذت منذ زمن طويل تتسرب بدعة ضالة تقول بسقوط الفرائض « إلى بعض النفوس التي لم تتعمق في الجانب الديني عموماً ولا في الجانب الصوفي خصوصاً . هذه البدعة ترى : أن الشخص الذي وصل إلى مرتبة معينة من المعرفة تسقط عنه التكاليف الشرعية ، فليس عليه صلاة ولا زكاة ولا حج . . ولا غير ذلك مما يلتزمه المسلمون .

ومن المؤسف أن تكون هذه الفكرة قد نشأت أول ما نشأت . . . بين من درسوا القانون والتشريع ، يزعمون أنهم وصلوا إلى درجة من المعرفة الصوفية العليا ، وإلى حدٍ لا تجب عليهم فيه التكاليف الشرعية »(٢) .

---

(١) ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، م . س ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٢) محمود ، د . عبد الحليم ، قضية التصوف المنقذ من الضلال ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٢٧ .

يضاف إلى بدعة سقوط التكاليف ، وشطحات يُدعى فيها أن الظاهر لا يعبّر عن حقيقة الباطن ، ذلك الاعتقاد بأن للأموات شأناً في قبول الدعاء أو قضاء الحاجات ، علماً أن الكرامات للأحياء من الأولياء وفق ما ذكرناه سابقاً .

إذا كانت المعجزات للأنبياء صلوات الله عليهم قد توقفت مع موتهم ونحن قد أخبرنا في القرآن أو السنّة أو ما تواتر نقله عن معجزات نبينا ﷺ ، فهل من الممكن أن يكون للولي كرامات بعد موته ؟ .

وإذا كانت زيارة القبور من الأمور التي أمرنا بها النبي ﷺ من أجل الاعتبار فإن ذلك لا يعني بأي حال أن الأمر جاء لطلب الكرامات والحاجات من أموات قال فيهم النبي ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[1] .

لذلك يدخل في باب الزيارة البدعية للقبور تلك « التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء أو الشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء . فالزيارة على هذه الوجوه كلّها مبتدعة لم يشرّعها النبي ﷺ ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي ﷺ ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك ، ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهياً عنه ، ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته ، كما قال النبي : « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم

---

(١) رواه الدارمي .

مساجد » ، وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنّي أنهاكم عن ذلك » .

فإذا كان ذلك محرماً ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل الطلبات وقضاء الحاجات ؟ »[1] .

لقد أدرجت هذه القضية تحت موضوع الكرامات لأن بعض المأخوذين بولي أو شيخ لم يكتفوا بالتقرب منه في حياته لفضله وعلمه وتقاه ، وقد يكون مستدرجاً أحياناً من قبل الشيطان صاحب شطحات وبدع ، بل تراهم يصرون على تقديس قبره موقعاً وطيناً ، وما هذا من خلق الإسلام ، ولا يتناسب مع عقيدة التوحيد .

ويذكرني هؤلاء الجهلة الذين يبتغون الفضل من غير مصدره (الله تعالى) بحالة العشاق السّذّج الذين يمثلهم جميل بن معمر ، المشهور بجميل بثينة نسبة لعشيقته بثينة التي خاطبها :

يهـواكِ ما عشتُ الفؤاد وإن أَمُت
يتبـع صـدايَ صـداكِ بين الأقبـر

وكما أن هوى جميل بثينةَ لم يفده وصلاً كذلك حال من طلبوا الحاجات من سكان القبور .

الكرامات للأولياء أمر ثابت لا جدال فيه ، ولكن للأحياء « وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث » .

وقد أفتى ابن تيمية رحمه الله قائلاً : « لا يجوز لأحد أن يستغيث

---

(١) ابن تيمية ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، سنة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ، ص ٢٤ .

بأحد من المشائخ الغائبين ولا الميّتين ، مثل أن يقول : يا سيدي فلان أغثني وانصرني وادفع عنّي ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك بل كل ذلك من الشرك الذي حرم الله ورسوله وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميّتين عند قبورهم ـ لما كانوا من جنس عبّاد الأوثان ـ صار الشيطان يضلّهم ويغويهم ، كما يضلّ عبّاد الأصنام ويغويهم »[1] .

---

(١) ابن تيمية ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، م . س ، ص ١٥٤ .

محطات ومواقف من تاريخ التصوف

نشأ التصوف في البداية كما سلف القول من مصادر إسلامية بحتة ، وفهم الصوفيون الأول أن التصوف ما هو سوى رباط وجهاد على الثغور ، وليس على الإطلاق هجراً للعيال والأوطان ، وهذا المفهوم مستفاد من حديث النبي ﷺ في وصف أصحابه بأنهم « فرسان النهار رهبان الليل » .

وإذا كانت في عصور لاحقة على بدء النشأة قد طرأت على التصوف عوامل ومؤثرات سلبية من فلسفات وعقائد دخيلة وتتناقض مع الإسلام في وجوه كثيرة ، إلا أن لكثير من الطرق والزوايا وأتباعها دوراً بارزاً في نشر الإسلام ، وفي الدفاع عن ثغوره ودياره .

يؤكد ما ذهبنا إليه أن الزوايا سميت في البدء ـ خاصة في المغرب العربي وبعض البلاد الأفريقية الشمالية والوسطى ـ رباطات ؛ وهي مشتقة من رباط الخيل التي وردت في الآية الكريمة : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1] ومن الرباط أيضاً

---

(١) سورة الأنفال ، آية ٦٠ .

يقال : رابط الجيش في الثغر ؛ أي أقام فيه للحماية والمدافعة ، وسميت الإقامة في الثغور مرابطة ، ومنها اشتهر في المغرب « المرابطون » والرباط في الإسلام شعبة من شعب الجهاد في سبيل الله ، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » . رواه البخاري وأحمد بن حنبل والترمذي .

اشتهرت الرباطات في المغرب العربي على السواحل خاصة ومنها : « قصر هرقلة وقصر سوسة وقصر الطوب وقصر أبي الجعد وقصر المنستير . . . والرباط يسمى بالقصر إذا كان مشرفاً بزيادة عالية في بنائه أو بمنارات الاستكشاف ، وهذه الرباطات كلّها من تدبير الدولة الأغلبية في تحصين الثغور جرياً على ما تقوم به دولة بني العباس في الشرق . وقد ساهم في تأسيسها بعض أغنياء المسلمين . . . كانت هذه الرباطات عامرة بالمرابطين والعلماء والصلحاء والصوفية ، وكان بعضهم يسكنها مع زوجته »[1] .

فالرباطات إذن لم تكن عملاً فردياً ، أو بمبادرة لهدف خاص ، وإنما قامت بالتخطيط لها الدولة الإسلامية ، وحددت مواقعها وصفاتها كي تنجح في تحقيق الغرض الذي بنيت من أجله . والمشهور في تاريخ المغرب أن أول الرباطات كان رباط المنستير في تونس ؛ فهو « أول رباط أقامه العرب بأفريقيا أسسه الوالي هرثمة بن أعين على غرار ما حصن به الرشيد العباسي ثغور البلاد الإسلامية في الشرق .

---

(١) النيال ، محمد البهلي ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، تونس ، مكتبة النجاح ، سنة ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

ويظهر أن الأغالبة قد نسجوا على منواله أو نفذوا لهرثمة تصميماً كان أعدّه في سنة ١٨٠ هـ . تجهيزاً للسواحل الأفريقية بحصون من الرباطات ، لأن ذلك قد أتمه الأغالبة بسرعة ، وكان عملهم هذا من مفاخر سياستهم ويقظتهم العمرانية والدفاعية في هذه البلاد »[١] .

يضيف الدكتور عبد الرحمن بدوي إلى ما قاله محمد البهلي النيال ، مؤكداً على جانب آخر غير المدافعة ، هو انتشار الاسلام في أفريقيا ، وخاصة أفريقيا الوسطى ، فإن انتشار الإسلام في « السنغال ، ومالي ، والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا والتشاد . . . إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية . . . فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق الصوفية بؤرات لنشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي القارة الأفريقية وقلبها . ومردّ هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد ، وعيشهم بين العامة والفقراء ، مما أبدى لهؤلاء نماذج حيَّة تتصف بالتقوى »[٢] .

يضاف إلى ذلك نشاط بعض الصوفية في نشر الإسلام في بلاد الهند والصين وماليزيا وأندونيسيا وغيرها مما كانت تسمى بلاد ما وراء النهر والتي يتواجد فيها مئات الملايين من المسلمين ، مع العلم أن الفتح العربي الاسلامي لم يصل إليها ، وإنما انتشر فيها الإسلام بفضل الدعاة والتجار والمتصوفين .

والمشرق العربي يعرف نظام الرباطات كما ذكرنا وعلى سبيل

---

(١) النيال ، محمد البهلي ، م . س ، ص ١٦٣ .

(٢) بدوي ، د . عبد الرحمن ، م . س ، ص ٢٥ .

المثال « عبادان كانت في الأصل أول رباط تجمع فيه متطوعة البصرة للدفاع عن هذا الثغر الإسلامي ، وفيه رابط عدد كبير من مشايخ الصوفية مثل مقاتل بن سليمان (المتوفى سنة ١٥٨ هـ) ، وحماد بن سلمة (المتوفى سنة ١٦٧ هـ) ، وبشر الحافي . . . الخ »[١] .

يحمل لنا التاريخ أيضاً مواقف جهادية لكثير من الطرق وشيوخها من ذلك خروج أبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية ، وهو ضرير متقدّم في السن مع سواه من علماء مصر على رأس الجيوش لمقاتلة لويس التاسع الفرنسي زمن حكم المماليك لمصر حيث هزموه في معركة المنصورة الشهيرة .

ومن الأمثلة أيضاً ثورة عمر المختار ضد الإيطاليين في ليبيا ، وعمر المختار وعسكره كانوا من أتباع الرباطات المعروفة في المغرب العربي وبعدهم دور السنوسية غير خافٍ في تحرير ليبيا وسواها من بلاد المغرب ، وكذلك المهدية في السودان ودورها في مقاومة الانكليز واتباعها في الغالب صوفيون .

كما أن الدكتور تركي رابح يؤكد على الدور الإيجابي لبعض الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر في مقاومة الاحتلال الفرنسي ، ويقول : « ان لبعض الصوفية في الجزائر دوراً لا يمكن إنكاره في المحافظة على الثقافة العربية الإسلامية ، واللغة العربية خصوصاً بعد أن طوردت هذه الثقافة من مراكزها الأصلية من طرق الاستعمار إلى الزوايا الموجودة في الجبال الوعرة والصحارى القاحلة . ولا يزال

---

(١) بدوي ، د . عبد الرحمن ، م . س ، ص ٢٦ .

البعض من هذه الزوايا[1] الصالحة يؤدي دوره في نشر الثقافة حتى اليوم . . . كما أن بعض الطرق الصوفية كان لها دور كبير في الجهاد ضد الاستعمار ، مثل « الطريقة الرحمانية » التي شارك قادتها في ثورة (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) و « الطريقة القادرية » التابعة لأسرة الأمير عبد القادر بطل الكفاح الجزائري »[2] .

هذه الآثار الإيجابية والمحطات المشرقة للصوفية المعتدلة البعيدة عن الغلو وعن المؤثرات الأجنبية الفاسدة يقابلها إضافة إلى مزاعم الحلول والاتحاد وقهر البدن وهجر الدنيا وكلها منافية للإسلام ، إنه قد استُغلّ الدين ستاراً لبعض الجاهلين حتى يحقّقوا مصالحهم ، فكان من ذلك في عصور كما يقول المصلح عبد الرحمن الكواكبي : « دخول الفساد على التصوف وإضراره بالدين وبالمسلمين ، . . فقد نشأ من أن بعض المرتدين ، من أهل القرن الرابع ، لما رأوا توسع الفقهاء في الشرع وتفنن المتكلمين في العقائد ، فهم كذلك اقتبسوا من فلسفة فيثاغورس وتلامذته في الإلهيات قواعد ، وانتزعوا من لاهوتيات الكتابيين والوثنيين جملاً ، وألبسوها لباساً إسلامياً ، فجعلوه علماً مخصوصاً ميّزوه باسم علم التصوف »[3] .

---

(١) من هذه الزوايا : ـ زاوية الهامل في جنوب مدينة بو سعادة في صحراء الجزائر .
ـ زاوية ابن أبي داود في بلاد الأمازيغ (البربر) في جبال جرجرة .
ـ زاوية الشلاطة بالقرب من مدينة آقبو بجبال جرجرة .

(٢) رابح ، د . تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط ٣ ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٠١

(٣) الكواكبي ، عبد الرحمن ، أم القرى ، بيروت ، مؤسسة ناصر الثقافية ، ط ١ ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٥١ .

إن مدعي الطرقية منحوا نفوذاً زمن الحكام المستبدين فأصابهم حظ من الثراء أفسدوا به الدين وبواسطة نفوذهم المقرون بالمزاعم « جعلوا كثيراً من المدارس تكايا البطالين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات المرهبة ، وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للطالبين . وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وجعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم »(١) .

إن شكوى الكواكبي في المشرق من مدّعي الطرقية الذين عملوا في تجهيل العامة ، وشجعوا التخاذل والاستسلام يماثلهم جماعات في المغرب العربي حيث يصور الشيخ عبد الحميد بن باديس الحالة بقوله : « لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي ، والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، سيطرة مذهلة ، فبلغ عدد الزوايا في الجزائر ٣٤٩ زاوية وعدد المريدين أو الأخوان (٢٩٥٠٠٠) مريد . والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم طرقيين ، فساد الظلام ، وخيّم الجمود ، وكثرت البدع ، واستسلم الناس للقدر ، . . . وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت إلى تعطيل الفكر وشل جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى »(٢) .

إن الخطير عند هؤلاء الطرقيين أن الاستعمار قد نجح في استغلالهم بشتى الأساليب فأصبحوا معيناً له على قهر الناس . لقد وجد الاستعمار في الطرقيين المنحرفين مطية « يركبها إلى أغراضه .

---

(١) الكواكبي ، عبد الرحمن ، أم القرى ، م . س ، ص ٦٦ .

(٢) ابن باديس ، عبد الحميد ، آثار عبد الحميد بن باديس ، م ١ ، إعداد وتصنيف عمّار الطالبي ، دمشق ، دار اليقظة العربية ، ط ١ ، سنة ١٩٦٨ ، ص ١٨ .

إنه يريد أن يفسد الأخلاق ، ويهدم الدين في النفوس ، فوجد هؤلاء المشايخ أحسن ركوبة ، وأطوع وسيلة ، وأخلص خادم ، فصيرهم جنوده في قتل الأمة ، فأفسدوا دينها وعلموها الخمول والجمود والذلة والاستسلام للعدو ، وجرّدوها من الثقة بالنفس ، . . . وأن حظّ المسلم في الآخرة ، أما في دنياه فهو للشقاء والتعاسة والحرمان »[1] .

والسبب في أنهم عملوا أداة للاستعمار هو جهلهم بالإسلام والجهاد والرباطات ، وحتى التصوف الذي هو فروسية في النهار ، ورهبنة وعبادة في الليل . ويصورهم مؤرخ جزائري هو محمد علي دبّوز بقوله : « كان هؤلاء المشايخ جاهلين فاسدين لا تهمهم إلا شهواتهم فحرصوا على بقاء الجهل الذي يقيّد العامة لهم ليستغلوها كما يريدون ، ويبتزوا أموالها ، ويسيطروا عليها ، ويسخروها في شهواتهم، . . . . وكانت هذه العامة إذا زارت المشايخ الأحياء تزحف على وجوهها من مسافة بعيدة قبل وصول مجلسه ، . . . أما قبور المشايخ فهي أماكن الرحمة والبركات . ترى العامة الجاهلة قبل أن تصل قبر الشيخ تتمسح بجدار مقبرته ، وتخشع وتنادي به باكية ، يا سيدي فلان جئتك مستجيراً فاغفر لي ذنبي ، واقضِ حوائجي ، ودمّر أعدائي »[2] .

لقد ساهم الاعتقاد الخاطىء للعامة بدور شيوخ الطرق وموقعهم الإسلامي في أن أعطاهم بعض الجاهلة صفات من التعظيم وطلبوا

(١ ، ٢) دبّوز ، محمد علي ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج ١ ، قسنطينة (الجزائر) ، مطبعة البعث ، ط ١ ، سنة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ، ص ٢٣ .

منهم أموراً كلها لا يجوز أن تكون لغير الله تعالى ومنه . فكأن شبه وثنية تركت بصماتها على سلوك نشره الجهلة الذين يمشون مكبين على وجوهم ، ولا يبحثون عن الصراط المستقيم ، علماً أن الكثير من هذه المزاعم والشطحات لم تكن في أصل نشأة التصوف الذي قام إسلامياً بالأساس فأفسده بعضهم بما أدخلوا عليه من مفاهيم مصدرها غير إسلامي من بدع وانحرافات .

يبدو « أن معظم رجال الطرق الصوفية قد انحرفوا عن الخط العام الذي رسمه مؤسسو تلك الطرق وهو التصوف والرياضة الروحية ، ونشر الدعوة الإسلامية الخالصة من البدع والأضاليل المنافية للدين .

. . . وقد ساعد على هذا الانحدار العام نحو هذا الاتجاه المنحرف الذي انتهت إليه الطرقية في الجزائر كثرة انتشار الجهل والأمية بين الناس »[١] .

إن المتتبع لحال الطرق في أيامنا سيلاحظ بأن بعض الصوفية عامل مجاهد داعية ولا بأس بسلوكه ، وكثر هم الذين يدّعون لأنفسهم ما لا يقبله الإسلام مما يجعل سلوكهم مسيئاً للإسلام شكلاً ومضموناً ، وما ذلك إلا لما دخل على الصوفية مع الزمن من بدع ومفاهيم انحرفت بها عن بداية نشأتها كحركة زهد وعبادة ورباط على الثغور في سبيل الله تعالى .

من أجل معالجة هذه المعضلة يقترح عبد الرحمن الكواكبي : « التوسل لحمل أهل الطرائق على الرجوع إلى الأصول الملائمة

---

(١) رابح ، د . تركي ، م . س ، ص ٩٨ ، ٩٩ .

للشرع والحكمة في الإرشاد وتربية المريدين ، وتكليف كل فرقة منهم بوظيفة مخصوصة يخدمون بها الأمة الإسلامية من نحو اختصاص فرقة . . . بإعاشة وتعليم الأيتام ، وأخرى بمواساة المساكين وأبناء السبيل ، وجماعة بتمريض الفقراء والبائسين ، وفئة بالتشويق إلى الصلاة ، وغيرها بالتنفير من المسكرات »[1] ، وأن ينخرط الجميع في عداد المجاهدين ضد الأعداء فالجهاد كما قال الإمام علي كرم الله وجهه : باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه . وإذا كان من الصوفية من يعد نفسه من أولياء الله تعالى فليتقدم المجاهدين لتحرير البلاد ، ورفع الظلم ، ونشر العدل ، وإلا إذا كان يدعو إلى هجر الدنيا والاستسلام لواقع الحال زعماً بأنه يعمل للآخرة فإننا نقول له : لست لا من خاصة ولا من عامة أولياء الله تعالى ، لأن اهمالك الدنيا وشؤون المسلمين تخرج بك عن أن تكون واحداً منهم فمن لم يهتم بشؤون المسلمين ليس منهم .

---

(١) الكواكبي ، عبد الرحمن ، أم القرى ، م . س ، ص ٢١٨ .

لا رهبانية في الإسلام

إن التصوف الإسلامي بدأ في الأساس حركة زهد مال إليه نفر من المسلمين خوفاً من الإغراءات الدنيوية ، وسعياً للفوز بالآخرة ، واقتداء بالمثال الأعلى في الزهد النبي محمد ﷺ ومعظم صحبه من بعده .

إلاّ أن الزهد لا يعني في حال من الأحوال هجر الدنيا ، والقعود عن العمل ، فهذا السلوك مما لا يوافقه الإسلام ، ولا يتناسب معه حيث من واجب المسلم أن يعدّ للدنيا عدّتها إلى جانب تزوّده للآخرة . هذا إضافة إلى أن الإسلام دعا إلى الوسطية والاعتدال في كل أمر، وبالتالي يكون التطرف والغلو في أي موضوع هو من باب التعارض مع منهج الإسلام .

إن الخطاب الإلهي للإنسان حول هذا الموضوع مما لا يقبل التأويل أو الاختلاف في التفسير والفهم ، فلقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾[1] .

---

(١) سورة القصص ، آية ٧٧ .

فالزهد كما جاء في تعريف لـلإمام علي كـرم الله وجهه ليس اعتزالاً للدنيا أو هجراً للكسب والعمل من أجل زيادة القدرات من مستلزمات الحياة مما يكوّن عنصر قوة للإسلام والمسلمين . « قال أمير المؤمنين رضي الله تعالى عنه :

لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى يسمّى زاهداً . ولو أنه ترك جميع ما في الأرض ولم يرد بتركه وجه الله تعالى لم يسمّ زاهداً ولا كان للّه تعالى في ذلك عابداً . فليكن أخذك الذي تأخذه وتركك الذي تتركه للّه عـزّ وجل لا لغيـره ، واعلم أنّ الحكيم إذا تناول أعراض الدنيا جرى مجرى حاذق تناول حيـة قد عرف ضرّها ونفعها ، وأمن سمّها ، فيتحرّى بتناولها الوجه الذي ينتفع هو به وينفع غيره »[(١)] .

إذن ليس المطلوب هجر الدنيا وإنما أن يكون الإنسان في كل حالاته قد نوى أن يكون هو وماله وعمله في سبيل الله تعالى . فمن صحابة النبي ﷺ من امتلك المال وعند الحاجة صرفه دون تردد في سبيل الله كعثمان رضي الله عنه مثلاً ، الذي جهز جيش العسرة ، ولذلك يعدّ زاهداً ، وقد يكون من الناس من يملك ما هو أقلّ من مال عثمان ولكنه يتعلّق بمالٍ ويكون شحيحاً مقتراً وهذا يعدّ حكماً من أهل الدنيا .

إن مراعاة أمور الدنيا وإعداد العدّة لها أمر لا مانع فيه ، بل هو من ضرورة حياة الإنسان المستخلف في الأرض شرط أن لا تملك الدنيا

---

(١) الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب ، م . س ، ص ١٦١ .

على المرء قلبه وتفكيره . ويقسّم أبو القاسم الأصفهاني الناس في هذا إلى ثلاثة أصناف :

« صنف منهم المنهوكون في الدّنيا بلا التفات منهم إلى العقبى ، وهم المسمّون عبدة الطاغوت ، وشرّ الدواب ونحوها من الأسماء .

وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم إلى مصالح الدنيا .

وصنف متوسط قد أعطوا الدارين حقّهما ، وهذا الصنف هم عندي الحكماء الأفضلون لأن بهم قوام أسباب الدنيا والآخرة ، ومنهم عامة الأنبياء لأن اللّه عزّ وجل بعثهم لإقامة مصالح المعاد والمعاش ولأنّ أمورهم مبنية على الاعتدال الذي هو أشرف الأحوال »[1] .

وليس أدل على ضرورة الاهتمام بأمور المعاد والمعاش مما جرى للنبي ﷺ مع مجموعة غالوا في عبادتهم وهجرهم للدنيا ، وعندما جاءوا إليه قال أحدهم : أنا أصوم ولا أفطر . والثاني : أنا أقوم ولا أنام . والثالث : لا أقرب النساء . فأجابهم ﷺ بعد أن نهاهم على ألاّ يفعلوا وقال لهم : إنني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس منّي .

روي كذلك عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قوله : « خرجنا

(١) الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب ، م . س ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

مع رسول الله ﷺ في سريّة من سراياه فقال : مرّ رجل بغار فيه شيء من ماء ، فحدّث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار ، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ، ويتخلّى عن الدنيا . قال : لو أني أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل ، فأتاه فقال : يا نبي الله إنّي مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل ، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلّى عن الدنيا . قال : فقال النبي ﷺ : . . . والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة »[١] .

إن هذا الحديث النبوي الشريف يقرّر بما لا يقبل النقاش ضرورة الجهاد والسعي ، ويرفض الاعتزال في الصوامع والكهوف ، أي ما سمّي : الرهبانية عند غير المسلمين . ولقد جاء ما يؤيد ذلك في أحاديث أخرى حيث قال النبي ﷺ في حديث : « إن الرهبانية لم تكتب علينا »[٢] وفي حديث آخر « إني لم أومر بالرهبانية »[٣] .

وفي الإسلام الرهبانية بدعة لأنها من نوع المحدثات عند بني إسرائيل كما نصت الآية الكريمة : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده .

(٢) رواه أحمد بن حنبل .

(٣) رواه الدارمي .

فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها فَآتَيْنا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1] .

لقد كانت لهم الرأفة والرحمة فأتبعوها بنظام رهبانية لم يكتبها الله تعالى عليهم ، فحملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع عن المطعم والمشرب والنكاح والتعلّق بالكهوف والصوامع ، وذلك أن ملوكهم غيّروا وبدّلوا وبقي نفر قليل فترهّبوا وتبتلوا . وما ابتدعوه من رهبانية لم يكتب عليهم وإنما ما كتب هو الإيمان والعمل وفق ما فيه رضوان الله لذلك أدى هذا الابتداع إلى مخالفة رضوان الله ، فبات المتبعون لنظام الرهبنة في المستقبل في الأغلب فاسقين[2] . وينقل القرطبي في تفسيره ما رواه الكوفيون عن عبد الله بن مسعود فيما رواه من حديث طويل عن النبي ﷺ : « هل تدري من أين اتخذ بنو اسرائيل الرهبانية ؟ ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى ، يعملون بمعاصي الله ، فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهُزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل ، فقالوا : إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعو إليه ، فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمي الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرّقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ـ وتلا « رهبانية » الآية ـ أتدري ما رهبانية أمتي ؟ الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع »[3] .

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢٧ .

(٢) يراجع : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٧ ، م . س ، ص ٢٦٢ وما بعدها .

(٣) القرطبي ، م . س ، ص ٢٦٥ .

إن الرهبانية إذن بدعة مذمومة، وأما من أراد أن ينقطع فليكن انقطاعه للجهاد والسعي وليس للخلوة والتخاذل، وفي موقع آخر من النصوص القرآنية جاء ما يذم فعل الرهبان الذين استغلّوا موقعهم لتجميع المال بالباطل على حساب الناس ، وهذا ما يضيف إلى وصف الرهبنة بأنها بدعة ما هو أكثر زجراً عنها .

لقد ورد قول الله تعالى في الرهبان : ﴿ يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] .

ذكر القرطبي في تفسيره لهذه الآية : أن الأحبار (علماء اليهود) والرهبان (مجتهدي النصارى في العبادة) كانوا يأخذون من أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك ؛ مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلّف إلى الله تعالى ، وهم خلال ذلك يحجبون تلك الأموال . . . وقيل : كانوا يأخذون من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع .

يقودنا تلمس مدلول هذه الآية الكريمة الى رفض أساليب الابتزاز للناس باسم الدين ، فهي ليست منه ، وقد عدّها النص القرآني عملاً من أنواع الباطل ، والأصح منه أن يقلع هؤلاء عن رهبانيتهم ويشاركوا في الشؤون الحياتية ويأخذوا منها نصيبهم .

---

(١) سورة التوبة ، آية ٣٤ .

فالخطاب لكل مؤمن أن يعتمد في حاجاته على ما يكسبه من حلال طيب ، وهو صريح في قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾[1] . كما أن الأنبياء والرسل كانوا يعملون في كسب رزقهم ومعاشهم ، من ذلك رعي الغنم من قبل موسى عليه السلام ، وهذا مستفاد من جوابه عن عصاه ، والغاية من حمله لها ، حيث جاء قول الله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾[2] .

وفي قصة داود عليه السلام حديث عن إلانةِ الحَديدِ والصناعة في قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ* أَنِ ٱعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3] .

دعا داود عليه السلام ربّه في أن يعلّمه صنعة ويسهلها عليه ، فعلّمه صنعة لبوس . . فألان له الحديد فصنع الدروع ؛ فكان يصنع الدرع فيما بين يومه وليلته يساوي ألف درهم ، حتى ادّخر منها كثيراً وتوسّعت معيشة منزله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين ، . . . وفي هذه الآية دليل على تعلّم أهل الفضل الصنائع ، وأن التحرّف بها لا ينقص من مناصبهم ، بل ذلك زيادة في فضلهم وفضائلهم ؛ إذ

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٦٧ .

(٢) سورة طه ، آية ١٨ .

(٣) سورة سبأ ، آية ١٠ ، ١١ ـ أَوِّبي معه : رجّعي معه التسبيح . سابغات : دروعاً واسعة كاملة . قدّر في السرد : أحكم صنعتك في نسج الدروع .

يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم ، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان[١] .

وجاء ما يؤكد هذا التفسير في حديث النبي ﷺ ، وأنه قال : « إن خير ما أكل المرء من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده »[٢] .

وإذا أردنا استكمال العرض وجدنا الأمثلة العديدة من سير الأنبياء والصالحين الذين كانوا يعملون من أجل كسب ما يحتاجونه ، والمعلوم أن النبي ﷺ قد رعى الغنم لقريش في شبابه قبل البعثة ، وتاجر في أموال خديجة رضي الله عنها ، ومن الأحاديث التي تحثّ على العمل والكسب : « لأن يغدو أحدكم فيحطتب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ، ذلك فإن اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول »[٣] .

إن الكسب أمر حث عليه الإسلام الذي لم يحرّم التمتع بالحلال من زينة الحياة الدنيا ، والأمر المحظور هو الانغماس في الشهوات ، والسير وراء الأهواء مما يغلّف القلب ويعطّله عن ذكر الله تعالى ، وقد خاطب الله تعالى دعاة الانقطاع عن الدنيا وسلوك سبيل الرهبنة في قوله العزيز الحكيم : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

---

(١) القرطبي ، م . س ، ج ١٤ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ . .
(٢) جاء عند القرطبي في تفسيره .
(٣) رواه مسلم .

وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾[1] .

يوَجِّه السؤال والاستفسار هنا إلى من كان يزهّد عباد الله بزينة الحياة الدنيا من اللباس والطعام مع أن الإسلام لم يحرّم على أتباعه التمتع بأنواع اللباس والطعام شرط أن تكون من كسب حلال . وقد جاء في الحديث الشريف : « إن اللّه يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده »[2] .

ولقد كره السلف الصالح ادّعاء الفقر ، وحثّوا على ضرورة التمتّع بالحلال من زينة الحياة ولقد قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله في هذا الموضوع : أكره لبس الفُوَط والمرقعات لأربعة أوجه :

- أحدها : أنه ليس من لبس السلف ، وإنما كانوا يرقّعون ضرورة .
- والثاني : أنه يتضمن ادّعاء الفقر ، وقد أُمِرَ الإنسان أن يظهر أثر نعمة الله عليه .
- والثالث : إظهار التزهد ؛ وقد أمرنا بستره .
- والرابع : أنه تشبّه بهؤلاء المتزحزحين عن الشريعة ، ومن تشبّه بقوم فهو منهم .

وقال الطبري : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حلّه ، ومن أكل البقول والعدس واختاره على خبز البر ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي .

عارض شهوة النساء .

وسئل بشر بن الحارث الحافي (صوفي) عن لبس الصوف ، فشقّ عليه وتبيّنت الكراهة في وجهه ثم قال : لبس الخزّ والمعصفر أحبّ إليّ من لبس الصوف في الأمصار[1] .

فالطيبات من الرزق لا يُفرض على المؤمن الامتناع عنها ، فهي من نعم الله تعالى عليه ، والمكروه فقط هو التكلّف والمبالغة في تحصيل مطالب البدن والشهوات ، لما فيه من التشاغل بالدنيا عن مهمات الآخرة . والطيِّبات في الدنيا مشتركة بين المؤمن وغيره ، ولكنها في اليوم الآخر خالصة للمؤمنين .

إن أغلب القول عند علماء المسلمين هو في ذمّ مدّعي السلوك الرهباني لأن مثل هذا « يتعطّل عن المكاسب ولم يكن له علم يؤخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يقتدى به . . فإنه يأخذ منافع الناس ويضيِّق عليهم معايشهم ولا يردّ إليهم نفعاً فلا طائل في مثلهم . . ولهذا الشأن كان عمر رضي الله عنه إذا نظر إلى ذي سيماء سأل : أله حرفة ؟ فإذا قيل : لا ، سقط من عينه . واستحسن النبي ﷺ من وفد عبد قيس لما سألهم : ما المروءة ؟ فقالوا : العفّة والحرفة »[2] .

نخلص مما عرضناه إلى القول : ليست الرهبانية من الإسلام في شيء ، والزهد هو أمر يختلف تماماً عن ذلك المنهج السلوكي القائم

---

(١) ورد في القرطبي ، م . س ، ج ٧ ، ص ١٩٧ .

(٢) الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب ، م . س ، ص ١٥٠ .

على المبالغة في قهر البدن ، وإهمال مطالبه ، وبذلك ليس مطلوباً أن نتجاوز في العبادة أو في سبـل العيش الحدود التي رسمتهـا لنا الشريعة .

فالإسلام لم يدعُ للرهبانية وإنما صنّفها في عداد البدع ، وطالب المسلم أن يكون وسطياً معتدلاً في كل أفعاله لا أن يكون متطرّفاً حتى لا يقوده ذلك إلى مـا لا تحمد عقبـاه . وإنه من الحقيقـة أن يقول الدكتور أبو العلا عفيفي : « لم يكن الزهد الرهباني من الفضائل التي دعا إليها الإسـلام ، لأن الإسلام في صميمـه دين اجتماعي . . . ولكن الإسلام دعا إلى نوع آخر من الزهد يمكن وصفه بأنه القصد في اللّذات وعدم التهالك عليها أو الإسراف فيها . ـ دعا الإسلام إلى الزهد في الدنيا وإلى تحقيرها لا إلى هجرها والفرار منها ، ودعا إلى عبادة الله تعالى في حدود رسمها ، ولم يدعُ إلى الانقطاع إلى هذه العبادة »[١] .

(١) عفيفي ، د . أبو العلا ، م . س ، ص ١٠٦ .

الفصل السادس

الغزالي

- حياته
- مفاهيم للغزالي في التصوف



حجة الإسلام الغزالي

(٤٥٠ هـ - ٥٠٥ هـ) (١٠٥٨م - ١١١١م)

حيـاتـه

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الملقب حجة الإسلام زين الدين ، الطوسي ، الفقيه الشافعي . أمـا لقب غزالي فيعود إما لمهنة والده غزل الصوف فيقال : غزّالي . وإما نسبة لإحدى قرى طوس غَزَالة ، فيقال : غزالي .

الغزالي تصح تسميته فيلسوفاً وصوفياً ومتكلماً . كـانت ولادته ووفاته في الطابران وهي محلة في طوس بخراسان . درس في بداية حياته بطوس على أحمد الراذكاتي ، بعدها عهد به والده مع أخيـه أحمد إلى صديق صوفي كان له أثر في نشأة الغزالي وميله إلى التصـوف.

انتقل بعد ذلك إلى نيسابور حيث درس على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني ، وجدّ في الاشتغال بالعلم والتحصيل حتى تخرج في مدة قريبة ، وصار من الأعيـان المشار إليهم في زمن أستـاذه ، ولكنه بقي ملازماً له حتى وفاته سنة (٤٧٨ هـ) حيث خرج من نيسابور إلى العسكر ، ولقي الوزير نظام الملك فـأكرمـه وبالـغ في الإقبال عليه ، وكان نظام الملك يحضر في مجلسه مع الغزالي جماعة من الأفاضل فجرى بينهم جدال ومناظرات في عدة مجالس ظهـر فيها

الغزالي على جلسائه ، واشتهر إسمه ، مما حمل الوزير على تفويض التدريس بمدرسته النظامية ببغداد إليه .

قدم الغزالي إلى نظامية بغداد وباشر إلقاء الدروس فيها وكـان ذلك في جمادى الأولى سنة (٤٨٤هـ) فأعجب به أهل العـراق ، وارتفعت عندهم منزلته ، ولكنه ترك ما كان عليه في ذي القعدة سنة (٤٨٨هـ) ومال إلى الزهد والخلوة وقصد إلى أداء فريضة الحج ، وعاد من الحج إلى مدينة دمشق حيث أقام مدة يلقي الـدروس في زاوية الجامع الأموي في الجانب الغربي منه .

بعد دمشق انتقل إلى بيت المقدس وفيها اجتهـد في العبادة ، وزيـارة المشاهـد والمواضـع المعظمـة ، ثم قصد مصـر وأقام في الإسكندرية مدة . ويُروى أنه كان ينوي ركوب البحـر إلى مراكش للاجتماع بأميرها يوسف بن تاشفين ، إلا ان بلوغه نبأ وفاة ابن تاشفين حمله على العدول عن السفر .

عقب هذه الرحلة التي يقال : أنها انقطاع وزهد ، والأصح أن نقول : إنها رحلة علم واستزادة على عادة علماء العصور السابقة ، لأن من أراد هجر الدنيا والخلوة يفعل ذلك وهو مقيم في بلده ، ولا داعي لهذا الترحـال لو لم يكن الغـرض المعرفـة والإطلاع ، عـاد الغـزالي إلى بلده طوس حيث عمـل في التـأليف وتصنيف الكتب واشتغل بنفسه بتهذيبها ورياضتها .

لكن بعد ذلك اتصل به نظام الملك مصراً أن يعيده إلى التدريس في « النظاميات » لأن عدم الاستفادة من علمه خسارة كبيرة ، وبعد الالحاح استجاب وعاد إلى نيسابور ليلقي الدروس في « نظاميتها » ،

ولكن لم يطل به الأمر حتى هجر التدريس في نيسابور وقفل عائداً إلى بلده طوس حيث أقام مدرسة للمشتغلين بالعلم ، وخانقاه للصوفية ، ووزع باقي وقته إضافة إلى الكتابة والتأليف في وظائف الخير من ختم القرآن الكريم إلى مجالسة أهل القلوب ، إلى القعود للتدريس ، وبقي كذلك حتى وفاته .

قد يكون من المفيد أن نعلم أن نشأة الغزالي إضافة إلى أحوال عصره القرن الخامس الهجري أثّرت في شخصيته ومواقفه. فلقد نشأ على حب التصوف ، وعلى التزام الموقف الأشعري في جملة من القضايا الكلامية والفلسفية المثارة في عصره بتأثير من أستاذه الجويني .

عرف عصر الغزالي تقدماً ونضجاً ثقافياً متميّزاً ، وكان قد انتشر أثر في مختلف المجالات للثقافات والفلسفات المنقولة عن الشعوب الأخرى فتعددت روافد الثقافة الموزعة بين الأصيل والدخيل ، وتنوعت سبل وأساليب المعرفة ومناهج البحث في شتى العلوم سواء منها الدينية أو غير الدينية .

كثر في زمن الغزالي المتحدثون في علوم الطبيعة وما وراء الطبيعة ، والمشتغلون بالمناظرات بين المذاهب والديانات ، وانتشر علم الكلام وشاع الجدل في العقائد وأصول الدين . إن هذا التنوع الرهيب حمل الغزالي على التفرغ لمهمة تبيان الحقيقة وتنزيه العقيدة مما لحق بالعلوم المتعلقة بها من أنواع البدع والكلام الذي لا طائل منه .

هذه الحالة الفكرية المضطربة جعلت الغزالي يقع في نوع من

الشك المنهجي الذي يبغي من ورائه الوصول إلى العلم اليقيني ، وهو ما يصوره في كتابه الذي يعدّ سيرة ذاتية : المنقذ من الضلال . وانتهى الأمر به إلى اختيار وتفضيل الطريق الصوفي على ما عداه ، لأنه سبيل القرب من الله تعالى ، ومن سلك هذا السبيل يكون قد سعى إلى الفوز بوعد الله تعالى في الآية الكريمة : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾[1] .

ترك لنا الغزالي آثاراً قيّمة في مختلف مجالات البحث أهّلته للقب : حجة الإسلام . ومن أبرز كتبه ما يلي :

إحياء علوم الدين ، مقاصد الفلاسفة ، تهافت الفلاسفة ، إلجام العوام عن علم الكلام ، المنقذ من الضلال ، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، فضائح الباطنية ، فضائح المعتزلة المعروف بالمستظهري ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ، أيها الولد ، منهاج العابدين ، كتاب الأربعين في أصول الدين ، مشكاة الأنوار ، معراج السالكين ، الإقتصاد في الإعتقاد .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥ .

مفاهيم للغزالي في التصوف

إن الغزالي قد صنف طلاب المعرفة في أربعة هم : علماء الكلام ، الفلاسفة ، الباطنية أو التعليمية ، الصوفيون . وبعد مناقشة أساليب كل فريق من الثلاثة الأول في كتابه المنقذ من الضلال خلص إلى القول بأن الصوفية هم أصحاب العلم اليقيني الذي ينكشف معه المعلوم انكشافاً تاماً لا يبقى معه إمكان للشك أو الخطأ ، وما ذلك إلا لأن علمهم هو عطاء إلّهي بنور يقذفه الله في الصدر .

لذلك قال بأن طريقهم هو أسلم الطرق ، ولكنه يقوم على العلم والعمل ، وعلومهم مستمدة من نور مشكاة النبوة التي ليس بعدها على الأرض نور يستضاء به ، وطريقهم التي تبدأ مجاهدة ورياضة تنتهي بشرح الصدر بتوفيق من الله تعالى .

لكن سلوك الطريق الذي لا يقوم على العلم وقراءة ما كتب عن التصوف ، وهو أمر سهل ، وإنما على العمل ، وتبدّل الأحوال لا يستطيع المضي فيه إلا القلّة . ويشترط الغزالي للسالك المبتدىء أربعة أمور :

« أول الأمر : اعتقاد صحيح لا يكون فيه بدعة .
والثاني : توبة نصوح لا يرجع بعدها إلى الذلّة .

والثالث : استرضاء الخصوم حتى لا يبقى لأحد عليك حق .

والرابع : تحصيل علم الشريعة قدر ما تؤدي به أوامر الله تعالى ، ثم من العلوم الآخرة ما يكون به النجاة »[١] .

نلاحظ أن الغزالي في الشرط الرابع قد طالب السالك بتحصيل العلوم لأنها مفتاح الرشاد ، وسبيل الهداية ، ولأن أية عبادة مقترنة بالجهل قد تضر بصاحبها وبالدين .

وصية الغزالي لمن يريد السير في طريق الخلاص والنجاة أن يولي العلم اهتماماً أساسياً ، وإذا كانت العبادة فريضة على الجن والانس كما أخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم فإن العلم والعبادة توأمان لا يكون لأحدهما فائدة دون الآخر .

لقد خاطب الغزالي طالب الخلاص والعبادة قائلاً له : « عليك أولاً ـ وفقك الله ـ بالعلم فإنه القطب وعليه المدار ، واعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كل ما ترى وتسمع من تصنيف المصنفين وتعليم المعلمين ووعظ الواعظين ونظر الناظرين بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل . . . . فحقّ للعبد أن لا يشتغل إلا بهما ولا يتعب إلا لهما ولا ينظر إلا فيهما . واعلم أن ما سواهما من الأمور باطل لا خير فيه ولغو لا حاصل له فإذا علمت ذلك فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما ، ولذلك قال النبي ﷺ : إن فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي . . . وقال ﷺ : ألا أدلكم على أشرف أهل الجنة ، قالوا : بلى يا رسول

(١) الغزالي ، أبو حامد ، أيها الولد المحب ، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٤ ، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م ، ص ٤٨ .

الله ، قال : هم علماء أمتي .

إن العلم أشرف جوهراً من العبادة ولكن لا بد للعبد من العبادة مع العلم وإلا كان علمه هباء منثوراً . فإن العلم بمنزلة الشجرة والعبادة بمنزلة ثمرة من ثمراتها فالشرف للشجرة إذ هي الأصل لكن الانتفاع إنما يحصل بثمرتها ، فإذاً لا بد للعبد من أن يكون له من كلا الأمرين »[١] .

وإذا علمنا أن الجهل كان سبباً رئيساً عند العامة حينما رضيت ببدع بعض من أدخلوا ذلك على الإسلام باسم التصوف من فلسفات وعقائد فاسدة تتضح لنا أهمية ما قاله الغزالي عن أهمية العلم لكي تستقيم العبادة وتتأسس عليه ، ولو لم تكن للعلم مكانة خاصة وهامة لما جاءت نصوص عديدة في القرآن والسنة في فضل العلم والعلماء .

إلا أن العلم والعبادة وكل عمل يقوم به المرء لا جدوى منه إن لم يقترن بالنية والعزم على أنه في سبيل الله تعالى ، وسعياً لمرضاته وقربه ، ولكن حتى يكون الإنسان متجهاً بالكلية الى الله تعالى لا بد وأن يعرفه حق المعرفة وفي هذا قال حجة الإسلام للسالك : « إذا أحسنت النظر ، فرأيت قدر طاعة الله تعالى ، ورأيت عجز الخلق وضعفهم وجهلهم ، فلا تلتفت إليهم بقلبك ، وكن زاهداً في ثنائهم ومدحهم وتعظيمهم ، الذي لا فائدة تحته ، فلا تُرد بطاعتك شيئاً من ذلك إذا رأيت خسة الدنيا وحقارتها ، وسرعة زوالها ، فلا تُرِدها أيضاً

---

(١) الغزالي ، أبو حامد ، منهاج العابدين ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ، سنة ١٣٢٢ هـ ، ص ٥ .

بطاعتك من الله ، وقل يا نفس ثناء رب العالمين وشكره خير من ثناء المخلوقين العاجزين . . . لقد صدق القائل :

سهر العيون لغير وجهك باطل وبكاؤهن لغير فقدك ضائع »[1]

قد نجد من حصّل العلم وأتقن فنونه لكنه مع ذلك تزل به قدمه ، ويقع في الخطأ والمعصية ، وأحياناً يرتد أو تقوده شطحاته وانفعالاته الى ما لا يتوقعه ، ومرد ذلك يكون للنفس الأمارة بالسوء ، وأهوائها وجموحها الشهواني ، فالنفس كحصان الفارس لا بد من ترويضها على الطاعات والعبادات ، وتعويدها على الانضباط ، ولهذا حذّر الغزالي من النفس التي هي أضر على الإنسان من ألدّ الأعداء ، وذلك لسببين :

« ـ أحدهما أنها عدو من داخل واللص إذا كان من داخل البيت عزّت الحيلة فيه وعظم الضرر .

ـ والثاني أنه عدو محبوب والانسان عمٍ عن عيب محبوبه لا يكاد يبصر عيبه »[2] .

والنفس يبدأ صلاحها من قائدها القلب فهو الأولى بالعناية فمنه تنعكس كل الأشياء على سائر الأعضاء سلباً أو ايجاباً، وصلاح القلب يكون بإشغاله دائماً بذكر الله تعالى فإن الذكر يحلّي القلب ويزينه ويطرد منه الأهواء والنوازع الشهوانية التي هي سبيل كل شر ومعصية.

فالقلب هو « أصل الكل إن أفسدته فسد الكل وإن أصلحته صلح الكل ، إذ هو الشجرة وسائر الأعضاء أغصان ومن الشجرة تشرب

---

(١) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٧٣ .

(٢) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٢١ ، ٢٢ .

الأغصان ، وتصلح وتفسد وإنه الملك وسائر الأعضاء تبع وأركان ، وإذا صلح الملك صلحت الرعية وإذا فسد فسدت الرعية ، فإذاً صلاح العين واللسان والبطن وغيره دليل على صلاح القلب وعمرانه وإذا رأيت فيه خللاً وفساداً فاعلم أن ذلك من خلل في القلب وفساد وقع . . . فاصرف عنايتك إليه فأصلحه يصلح الكل بمرة فتستريح »[١] .

القلب يعمر ويصلح بالذكر وصفاء النية وعدم التعلّق بالدنيا بل أن تؤخذ لتكون مجازاً للآخرة. وهذا الأمر يبدأ بمحاسبة النفس والوقوف معها متفحصين أحوالها وما اقترفه المرء من ذنوب ومعاصٍ ، وإذا ما عرفنا هذه الحال يجب عندها البدء بالخطوة الأولى من بعد المحاسبة ، وهي خطوة التراجع وعدم الإصرار على ما وقعنا فيه ؛ أي يجب أن نبدأ طريق الصلاح ، والإنابة الى الله تعالى بالتوبة . فما هو مفهوم التوبة عند الغزالي ؟ .

التوبة شرط للسالكين وسبيل سعادة للمريدين وهي أمر واجب ودواعي « وجوبها في كل حال ، لأن الإنسان لا يخلو في جميع أحواله عن ذنب في جوارحه أو في قلبه ، ولا تخلو عن خلق من الأخلاق الذميمة مما يجب تزكية القلب عنه ، فإنه مبعد عن الله والاشتغال بإماطته توبة ، لأنه رجوع عن طريق البعد الى طريق القرب ، فإن خلا عن جميع ذلك فلا يخلو عن غفلة عن الله ، وذلك أيضاً طريق البعد »[٢] .

---

(١) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٣٩ .

(٢) الغزالي أبو حامد ، الأربعين في أصول الدين ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٩ ، ص ١٤٥ .

فالتوبة ضرورة لأنها تغسل القلب والجوارح من أخطاء الماضي كالصابون ، ولكن حتى تتم التوبة النصوح التي لا عودة بعدها الى الذنب ، والانصراف عن الذنوب إنما يتمّ « بالعلم والندم والعزم ، فإنه لو لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد ، وما لم يتوجّع فلا يرجع ، ومعنى الرجوع الترك والعزم »[١] .

إن العلم مقدمة ضرورية للرجوع والإنابة إلى الله تعالى لأن معرفة الذنوب وضررها وعقابها يقود الإنسان إلى تركها ، والبعد عنها ، فالتوبة هي : « ترك الذنب ، ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته ، وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجباً ، فمعرفة الذنوب إذن واجبة »[٢] .

بعد العلم يكون العمل ومن أهم أعمال التوبة عند العبد أن لا يتعمد القيام بمعصية أو فعل منكر بعد أن حصلت توبته ، أما ما يحصل من الإنسان سهواً أو دون تعمد فيدخل في باب أفعال الإنسان التي يكون مردّها الى عفو الله تعالى ، وهو أمر غير صعب على من أراد به الله خيراً ووفقه .

والتوبة تكون عادة حسب الذنوب ونتائج الأعمال التي صدرت من الإنسان ، ويقسم الغزالي الذنوب الى ثلاثة أنواع لكل نوع إجراء معين عند حصول التوبة ، وتكون كما يلي :

---

(١) الغزالي ، أبو حامد ، احياء علوم الدين ، ج ٤ ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، بدون تاريخ ، ص ٤ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ١٦

« ـ أحدها : ترك واجبات الله سبحانه وتعالى عليك من صلاة أو صوم أو زكاة أو كفارة أو غيرها فتقضي ما أمكنك منها .

ـ والثاني : ذنوب بينك وبين الله سبحانه وتعالى كشرب الخمر وضرب المزامير وأكل الربا ونحو ذلك فتندم على ذلك وتوطن قلبك على ترك العود إلى مثلها أبداً .

ـ والثالث : ذنوب بينك وبين العباد وهذا أشكل وأصعب وهي أقسام قد تكون في المال وفي النفس وفي العرض وفي الحرمة وفي الدين . . . . وجملة الأمر فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت الى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والابتهال والتصدق ليرضيه عنك ، فيكون ذلك في مشيئة الله سبحانه يوم القيامة »[1] .

بعد التوبة ننتقل الى مفهوم الزهد عند الغزالي . فالزهد عنده هو الإعراض عن الشهوات ، وعدم الانكباب على الدنيا وزينتها رغم اقتدار العبد عليها ، وتمكّنه منها ، لأن الإعراض القسري لمن لم تقبل عليه الدنيا هو فقر وليس زهداً . ويروى في الأثر أن ابن المبارك وهو أحد الصوفية خوطب يوماً : يا زاهد ، فقال لمخاطبه : الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها .

بداية الزهد ومنطلقه « أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان ، وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حراً ، وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لفرجه وبطنه وسائر أغراضه »[2] .

---

(١) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ١٠

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ٧٩ .

ليس كل من كان حاله الفقر وقلة المبالاة بالشهوات زاهداً ، ففي الإنسان صراع دائم بين العقل والروح من جهة ، وبين الشهوات من جهة ثانية ، ولا بد من تغليب العقل وإلا انقلبت حياة الإنسان الى حيوانية يستبيح فيها كل شيء فيطول أمله بالدنيا ويفسد ذلك عليه آخرته . والعاقل من غلّب عقله على هواه ، وأعرض عن الشهوات رغم تيسرها له . على ضوء هذه المفاهيم يقول الغزالي معرفاً الزاهد :

« الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفواً عفواً وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاه وقبح إسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفاً من أن يأنس بها ، فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله ، ويكون مشركاً في حب الله تعالى غيره . أو تركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعاً في أشربة الجنة »[١] .

نخلص الى سؤال هو كيف نعرف الزاهد من المرائي ؟ ويرد الغزالي محدداً علامات الزاهد بثلاث هي :

« **العلامة الأولى** : أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ . بل ينبغي أن يكون بالضد من ذلك ، وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده .

العلامة الثانية : أن يستوي عنده ذامّه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال ، والثاني علامة الزهد في الجاه .

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ٢١٩ .

العلامة الثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة ، إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة ، إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان »[١] .

إن زهد الغزالي لا يقصد به الخروج من الدنيا فهو نفسه كما نعلم عمل في التدريس في النظاميات ، وخط الكتب وأقام حلقات التدريس ، لكن الغزالي يطلب أن تكون الدنيا في اليد دون القلب فذلك يعبّر عن ثقة العبد بالله تعالى وتعلّقه به ، وقد تفرغ اليد من الدنيا مع ميل القلب إليها وهذا لا يعد زهداً ولا توكلاً على الله تعالى.

والاقتدار على الدنيا وإعداد العدة لها لا يتعارض البتة مع التوكل ، ويقول الغزالي : « فالمتوكل هل يحمل الزاد معه في الأسفار ؟ فاعلم أنه ربما يحمل الزاد ولا يعلّق القلب به بأنه لا محالة رزقه وفيه قوامه وإنما يعلّق القلب بالله تعالى ويتوكل عليه ، ويقول : إن الرزق مقسوم مفروغ منه . . . ليس الشأن في أخذ الزاد وتركه ، وإنما الشأن في القلب ، لا تعلّق قلبك إلا بوعد الله تعالى وحسن كفايته وضمانه ، فكم من حامل للزاد وقلبه مع الله دون الزاد وكم من تارك للزاد وقلبه مع الزاد دون الله تعالى . فالشأن إذن في القلب . . . فإن قيل : فالنبي ﷺ كان يحمل الزاد وكذلك الصحابة والسلف الصالح . يقال له : لا جرم أن ذلك مباح غير حرام وإنما الحرام تعليق القلب بالزاد وترك التوكل على الله سبحانه »[٢] .

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ٢٤١ .

(٢) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٤٤ .

يرتبط بمقام الزهد والتوكل مقام الصبر ، والصبر كما نعلم أمر له شأنه في سلوك الإنسان حيث تكثر النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الدالة على تقدم فضيلة الصبر على ما سواها . ولكن الصبر وفق المفهوم الصوفي عند الغزالي جاء فيه : « إعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين . . . فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصوّر ذلك في البهائم والملائكة . أما في البهائم فلنقصانها ، وأما في الملائكة فلكمالها .

فلنسمِ هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها : باعثاً دينياً ، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها : باعث الهوى . . . . . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة . . . فإن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى : الصبر »(١) .

وبمقابل الصبر على ما يحل بالإنسان من أنواع الابتلاء ، ومنها قوة الإرادة في تنظيم تلبية الحاجات دون الغرق في الشهوات ، هناك الشكر الذي يقرب العبد من ربه ففي الحديث الذي رواه البخاري وهو عن عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ عندما قام حتى تفطرت قدماه وسئل عن عبادته رغم أن الله تعالى غفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه ، أنه قال : وأنا على ذلك أفلا أكون عبداً شكوراً .

فالشكر إذن مقام للسالكين يكون بعد معرفة بالله تعالى المنعم ، وبنعمه التي أعطانا فيلي العلم والحال عمل هو الشكر ، والشكر

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

يكون بأن نصرف ما أعطانا الله تعالى في طاعته وسبيله ، « إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابّه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو استعمالها في مكارهه »(١) .

والغزالي كحاله في أية عبادة أو طريق تسلك ، يعد العلم دائماً منطلقاً لصلاح السلوك واستقامته ، والجهل منزلق نحو الخطأ والإنحراف . ويقول : « إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة ، فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ، ولا يتصوّر شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم إن عرفوا نعمه ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه : الحمد للّه ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة التي أريدت بها وهي طاعة الله عز وجل ، فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان »(٢) .

إضافة إلى ما سبق اخترنا من الأحوال عند الغزالي مفهومه لحالي الخوف والرجاء وذلك لترابطهما وأهميتهما في ضبط سلوك المرء وتوليد الدافع له للعمل رجاء رحمة الله تعالى وعفوه . والخوف يحصل عادة بسبب ذنب أو ذنوب اقترفها الإنسان وعلم ما يكون بمقابلها من العقاب فخاف من مستقبل صعب ، وقد يكون الخوف خشية سببها معرفة قدرة الله تعالى وهذه درجة راقية من الخوف تكون للعلماء .

يجب أن نعلم « أن حقيقة الخوف هو تألم القلب واحتراقه بسبب

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ٩٠ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٤ ، م . س ، ص ١٢٣ .

توقع مكروه في الاستقبال ، وقد يكون ذلك الخوف من جريان الذنوب ، وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة ، وهذا أكمل وأتم ، لأن من عرف الله خافه بالضرورة »[١] ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ ﴾ .

أما عن تعريف الخوف وأسباب حصوله في نفس الإنسان فيقول الغزالي : الخوف « رعدة تحدث في القلب عن ظنّ مكروه يناله والخشية نحوه لكن الخشية تقتضي ضرباً من الاستعظام والمهابة . . . ومقدمات الخوف أربع :

- الأولى : ذكر الذنوب الكثيرة التي سبقت وكثرة الخصوم الذين مضوا الى المظالم وأنت مرتهن لم يتبين لك الخلاص بعد .
- والثانية : ذكر شدة عقوبة الله سبحانه التي لا طاقة لك بها .
- والثالثة : ذكر ضعف نفسك عن احتمال العقوبة .
- والرابعة : ذكر قدرة الله تعالى عليك متى شاء وكيف شاء »[٢] .

إلا أن الخوف والخشية عند الإنسان إن عاشا وحيدين في فكره وقلبه عطلا قدرته على العمل ، وإنما فتح الله تعالى أمام الإنسان باب الرجاء والطمع برحمته تعالى وعفوه مما يدخل ألواناً من البهجة والسرور على قلب المؤمن تشد عزائمه ، وتحفزه على النشاط والعبادة .

---

(١) الغزالي ، الأربعين في أصول الدين ، م . س ، ص ١٥٠ .

(٢) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٥٦ .

والرجاء هو عند الغزالي : « ابتهاج القلب بمعرفة فضل الله سبحانه واستروا حه الى سعة رحمة الله تعالى وهذا من جملة الخواطر غير مقدور للعبد . ورجاء هو مقدور للعبد وهو تذكر فضل الله وسعة رحمته والمراد من هذا الباب هو الأول وهو التذكر على حسب الابتهاج والاسترواح وضده اليأس وهو تذكر فوات رحمة الله وفضله وقطع القلب عن ذلك وهو معصية محضة وهذا الرجاء فرض إذا لم يكن للعبد سبيل الى الإمتناع عن اليأس إلا به وإلا فهو نفل .

. . . ومقدمات الرجاء أربع :

الأولى : ذكر سوابق فضله إليك من غير قدم أو شفيع .

والثانية : ذكر ما وعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرامته على حسب فضله وكرمه دون استحقاقك إياه بالفعل إذ لو كان على حسب الفعل لكان أقل شيء وأصغر أمر .

والثالثة : ذكر نعمة الله عليك في أمر دينك ودنياك في الحال من أنواع الأمداد والألطاف من غير استحقاق أو سؤال .

والرابعة : ذكر سعة رحمة الله تعالى وسبقها غضبه وأنه الرحمن الرحيم الكريم الرؤوف بعباده المؤمنين »[1] .

لكن الرجاء ليس فتح باب التمنيات ، وإنما الرجاء عمل ينتظر بعده عفو الله ورحمته ، ويعدّ الغزالي الرجاء نقيضاً للتمني فيقول : « الرجاء يخالف التمني ، فإن من لا يتعاهد الأرض ولا يبث البذر ، ثم ينتظر الزرع ، فهو متمنٍ مغرور فليس براجٍ ، إنما الراجي من

---

(١) الغزالي ، منهاج العابدين ، م . س ، ص ٥٦ .

تعهد الأرض وسقاها ، وبث البذر وحصّل كل سبب يتعلق باختياره »[1] .

السعي والعمل ضرورة تسبق حال الرجاء ، والمؤمن سالك طريق الحق ما دام بين حالي الخوف والرجاء مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[2] .

تأسيساً على ما تقدم من مفهوم الخوف والرجاء يوصي الغزالي من يخاطبه : « إذن لا تنظر الى سعة رحمة الله فقط حتى تتكل وتأمن ولا إلى عظيم الهيبة والمناقشة فقط حتى تقنط وتيأس بل تنظر الى هذا وإلى هذا جميعاً وتأخذ من هذا بعضاً ومن هذا بعضاً فتركب بينهما طريقاً دقيقاً وتسلك ذلك لتسلم .

ولا يتأتى لك سلوك هذا الطريق . . . إلا بالتحفظ بثلاثة أصول :

- أحدها : ذكر أقواله تعالى سبحانه في الترغيب والترهيب .
- والثاني : ذكر أفعاله سبحانه في الأخذ والعفو .
- والثالث : ذكر جزائه للعباد في المعاد من الثواب والعقاب »[3] .

إن الدخول في الطريق المؤدي الى مرضاة الله تعالى والقرب منه

---

(١) الغزالي ، الأربعين في أصول الدين ، م . س ، ص ١٥٢ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية ٩٠ .
(٣) الغزالي ، منهاج العابدين ، م. س ، ص ٥٧ .

يتطلب من السالك المداومة على ذكر الله تعالى ، والتصرف في كل حال مع التيقن من مراقبة الله للإنسان ، فإن الذكر الدائم ، والتوجه بنية خالصة الى الله تعالى في كل فعل تولد الانس والاطمئنان ، وهذا هو غرض السالك .

والذكر قد تكون المداومة عليه صعبة في البداية ، ولكن الغزالي يحض السالك على المتابعة ولو بتكلف فذلك حكماً يقود الى التعود على الذكر وتحمله ، ويقول : « إن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس الى ذكر الله عز وجل ، فإن وُفّق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور . . . فمن أكثر ذكر شيء وإن تكلّفاً أحبّه فكذلك أول الذكر متكلّف الى أن يثمر الانس بالمذكور والحب له »[1] .

ننتقل بعد الاطلاع على بعض مفاهيم الاصطلاحات الصوفية عند الغزالي الى الحديث عن آفات مهلكات إذا أصيب بها السالك لطريق التصوف ، أو المسلم بشكل عام ، وقع في الخسران المبين . إن أول آفة مهلكة هي الشهوة في كل أشكالها ووجوهها ، من ميل الى مأكول أو مشروب أو منكوح ، الى حب للثروة أو الجاه أو الصيت الذائع . . . الخ .

وما تنبيه الغزالي منها إلا لأن كثيرين يستغلون مظهرهم أو يزعمون ما ليسوا فيه متخذين ذلك مطية لتحقيق متطلبات أهوائهم الخاصة ، ناسين أن الله تعالى يعلم السرائر وما يخفونه على الناس لا

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ١ ، تقديم د . بدوي طبانة ، القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ، بدون تاريخ ، ص ٣٠٣

محالة معلوم عند الله تعالى وسيحاسبون عليه .

إن « أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فيهاأخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار الى دار الذلّ والافتقار إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها .

. . . والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق الى المنكوحات ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال . . . ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ثم يفضي ذلك بصاحبه الى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء »[1] .

ويدخل في أنواع الآفات المهلكات ادّعاء الإنسان لعلم ليس من اختصاصه ، ولمعارف ليس بمقدوره تناولها كالخوض في المتشابه من القرآن ، أو صفات الذات الإلّهية وما الى ذلك ، وفي هذا مخالفة صريحة للأمر الوارد في الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[2] .

والخطير في ذلك عندما ينتشر الخوض في الأمر بين العامة التي كثيراً ما تكون مولعة به لتبرز عقدها وأنها أصبحت من الخاصة وأهل العلم ناهيك إذا ما اعتمد الزاعم الأول في فرقة ما أسلوب توزيع الرتب والألقاب ، فمن المهلكات كما يقول الغزالي : « سؤال العوام

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، م . س ، ص ٧٧ .

(٢) سورة الإسراء ، آية ٣٦ .

عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة ، ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما في القرآن إلا أن ذلك ثقيل على النفوس ، والفضول خفيف على القلب ، والعامي يفرح بالخوض في العلم إذ الشيطان يخيّل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلّم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري . . . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم »(١) .

إن ما نبّه منه الغزالي في خطر هذه الآفة نجده مرضاً مستشرياً عند معظم الجهلة الذين يسلكون الطريق مع شيخ ما ، حيث كثيراً ما يخاطبهم فوق درجة فهمهم فتتشوش أفكارهم ، وتدخلهم عقد القرب والتدين والولاية . . . الخ ، فيسهل عندها تلبيس الشيطان عليهم وتصدر عنهم شطحات ومزاعم قولية أو سلوكية ، أو يدّعون كرامات هيِ استدراج شيطان فينزلقون في مهاوٍ تبعد بهم عن روح الإسلام .

قبل أن نختم الكلام في المفاهيم الصوفية عند الغزالي من المفيد أن نذكر آفة خطيرة تظهر عند بعض السالكين ، والزاعمين في معظم تصرفاتهم وأحوالهم، إنها آفة الرياء ، ونذكر من الرياء أربعة أنواع مما أورده الغزالي ونجد الاطلاع عليها نافعاً وهي :

« ١ ـ الرياء في الدين بالبدن : وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الإجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة وليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، م . س ، ص ١٥٩ .

الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين .

٢ - الثاني : الرياء بالهيئة والزي ؛ أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب ، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق وبقصر الأكمام وترك تنظيف الثياب . . . كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متّبع للسنة فيه ومقتدٍ بعباد الله الصالحين .

٣ - الثالث : الرياء بالقول ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهاراً لغزارة العلم ، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين . . وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن . . .

٤ - الرابع : الرياء بالعمل ، كمراءاة المصلي بطول القيام ، ومدّ الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين ، وكذلك بالصوم والغزو والحج . . . وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام »[1] .

إن الغزالي رفض الرياء الذي يظهره بعض الناس لينالوا حظوة في قلوب العامة ، ولم يقبل كل أنواع الشطحات التي هي سلوك متطرف

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، م . س ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

دخيل على الإسلام وعلى التصوف . والصوفية التي يريدها الغزالي هي صوفية أساسها العلم وهدفها المعرفة ؛ أي صوفية مستنيرة لا تقبل الجهل لأنه مضر بالدين مفسد للسلوك ، وصوفيته تعتمد المجاهدة مع النفس وقطع عقبات عديدة تجعل الإنسان يتجافى عن دار الغرور (الدنيا) ، ويعدّ لدار الخلود (الآخرة) عدتها وأولها الإنابة إلى الله تعالى .

والغزالي الذي رفض أسلوب الاغترار بالعقل على طريقة المعتزلة وسعى إلى قبول ما ثبت بالتجربة من ثمرات التعقل أراد وضع العقل في حدود ضوابط الشرع ، ورفع الصوت أيضاً في وجه التقليد والبدع التي نشرها الأدعياء باسم التصوف والشريعة .

تم بعونه تعالى

المصادر

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ وضعه محمد فؤاد عبد الباقي .

٣ ـ تفصيل آيات القرآن الكريم ويليه المستدرك ـ وضعه جول لابوم وإدوار مونتيه ونقله إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي .

٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث وضعه ونسنك وجماعة من المستشرقين ، ونشرته مطبعة بريل بليدن (هولندا) .

٥ ـ ابن تيمية ، أحمد ، كتاب التصوف (في مجموع فتاوى ابن تيمية ، م ١١) ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الرباط ، مكتبة المعارف ، بدون تاريخ .

٦ ـ ابن تيمية ، أحمد ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، تصحيح وتعليق محمود عبد الوهاب فايد ، القاهرة ، دار العلم للجميع ، بدون تاريخ .

٧ ـ ابن تيمية ، أحمد ، قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ، سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

٨ ـ ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ، تلبيس إبليس ، تصحيح ونشر دار الطباعة المنيرية بالقاهرة

بمساعدة بعض علماء الأزهر الشريف ، سنة ١٣٦٨ هـ ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، بدون تاريخ .
٩ - ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ، سيرة عمر بن الخطاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
١٠ - ابن الجوزي ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ، صفة الصفوة ، ج ١ ، تحت مراقبة د . محمد عبد المعيد خان ، حيدر أباد الدكن (الهند) ، ط ٢ ، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
١١ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م .
١٢ - ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، القسم الثاني ، عني بطبعه وتصحيحه د . أوجين منوخ ، ود . ادوارد سخو ، ليدن (هولندا) ، مطبعة بريل ، سنة ١٣٢٢ هـ ، طبعة مصورة في مؤسسة النصر بطهران .
١٣ - الأصبهاني ، أبو نعيم أحمد ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، سنة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .
١٤ - الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، مصر ، مطبعة الوطن ، سنة ١٢٩٩ هـ .
١٥ - الجيلاني الحسني ، الشيخ عبد القادر ، الغُنية لطالبي طريق الحق ، مصر ، مكتبة البابي الحلبي ، ط ٣ ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٦٥ م .

١٦ ـ الشعراني ، أبو المواهب عبد الوهاب ، الطبقات الكبرى ، مصر ، مكتبة البابي الحلبي ، ط ١ ، سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .

١٧ ـ الشهرستاني ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل ، ج ٢ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، بيروت ، دار المعرفة ، سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

١٨ ـ الشوكاني ، قطر الولي على حديث الولي ، تحقيق وتقديم د . ابراهيم ابراهيم هلال ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .

١٩ ـ الطوسي ، أبو نصر عبد الله بن علي السرّاج ، اللمع في التصوف ، نسخ وتصحيح رنولد ألن نيكلسون ، ليدن (هولندا) ، مطبعة بريل ، سنة ١٩١٤ .

٢٠ ـ الغزالي ، أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ ، تقديم د . بدوي طبانة ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، بدون تاريخ .

وإحياء علوم الدين ، ج ٤ ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، بدون تاريخ .

٢١ ـ الغزالي ، أبو حامد ، الأربعين في أصول الدين ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ط ٢ ، سنة ١٩٧٩ .

٢٢ ـ الغزالي ، أبو حامد ، أيها الولد المحب ، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة ، بيروت ، دار الشروق ، ط ٤ ، سنة ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

٢٣ ـ الغزالي ، أبو حامد ، المنقذ من الضلال ، قدم له فريد

جبر ، بيروت ، المكتبة الشرقية ، ط ٢ ، سنة ١٩٦٩ .
٢٤ ـ الغزالي ، أبو حامد ، منهاج العابدين ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ، سنة ١٣٢٢ هـ .
٢٥ ـ القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، بدون تاريخ .
٢٦ ـ القشيري ، عبد الكريم بن هوازن ، الرسائل القشيرية ، حققها وعلق عليها وترجمها د . منير محمد حسن ، باكستان ، المعهد المركزي للأبحاث الإسلامية ، بدون تاريخ .
والرسالة القشيرية ، ج ١ ، تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ط ١ ، سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م .
٢٧ ـ الكلاباذي ، أبو بكر محمد بن اسحق ، التعرف لمذهب أهل التصوف ، نشر وتصحيح آرثر جون أوبري ، مصر ، مكتبة الخانجي ، سنة ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣م .
٢٨ ـ المكي ، أبو طالب ، قوت القلوب في معاملة المحبوب ، ج ١ ، مصر ، مطبعة البابي الحلبي ، سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .

المراجع

٢٩ ـ ابن أبي طالب ، الامام علي ، نهج البلاغة ، ضبط وفهرسة د . صبحي الصالح ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١ ، سنة ١٩٨٠ .

٣٠ ـ ابن باديس ، عبد الحميد ، آثار عبد الحميد بن باديس ، إعداد وتصنيف عمّار الطالبي ، دمشق ، دار اليقظة العربية ، ط ١ ، سنة ١٩٦٨ .

٣١ ـ ابن الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، كتاب البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات ، عني بتصحيحه ونشره الأب رتشرد يوسف مكارثي اليسوعي ، بيروت ، المكتبة الشرقية ، سنة ١٩٥٨ .

٣٢ ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ، ج ٣ ، تحقيق د . علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ط ١ ، سنة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠م .

٣٣ ـ بدوي ، د . عبد الرحمن ، تاريخ التصوف الإسلامي ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ط ١ ، سنة ١٩٧٥ .

٣٤ ـ الحفني ، د . عبد المنعم ، معجم مصطلحات الصوفية ،

بيروت ، دار المسيرة ، ط ١ ، سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .
٣٥ - خليف ، د . فتح الله ، محاضرات في الفلسفة الإسلامية (التصوف) ، بيروت ، مكتب كريدية ، سنة ١٩٧٥ .
٣٦ - دبوز ، محمد علي ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، ج ١ ، قسنطينة (الجزائر) ، مطبعة البعث ، ط ١ ، سنة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .
٣٧ - رابح ، د . تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط ٣ ، سنة ١٩٨١ .
٣٨ - شبَّر ، السيد عبد الله ، الأخلاق ، دققه جواد شبّر ، بيروت ، دار المرتضى ودار الكتاب الإسلامي ، بدون تاريخ .
٣٩ - شرف ، د . محمد جلال ، دراسات في التصوف الإسلامي ، بيروت ، دارالنهضة العربية ، سنة ١٩٨٠ .
٤٠ - عفيفي ، د . أبو العلا ، التصوف الثورة الروحية في الاسلام ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ١ ، سنة ١٩٦٣ .
٤١ - غني ، د . قاسم ، تاريخ التصوف الاسلامي ، ترجمه عن الفارسية صادق نشأت ، وراجعه د . أحمد ناجي القيسي ، ود . محمد مصطفى حلمي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٧٢ .
٤٢ - فروخ ، د . عمر ، تاريخ الفكر العربي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، سنة ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .
٤٣ - فروخ ، د . عمر ، التصوف في الاسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م .
٤٤ - الكواكبي ، عبد الرحمن ، أم القرى ، بيروت ، مؤسسة ناصر

الثقافية ، ط ١ ، سنة ١٩٨١ .
٤٥ ـ محمود ، د . عبد الحليم ، قضية التصوف المنقذ من الضلال ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٨١ .
٤٦ ـ مدكور ، د . ابراهيم ، في الفلسفة الإسلامية ، ج ٢ ، مصر ، دار المعارف ، سنة ١٩٨٣ .
٤٧ ـ المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين ، مروج الذهب ، م ٢ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، دار الفكر ، ط ٥ ، سنة ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .
٤٨ ـ المنوفي ، السيد محمود أبو الفيض ، المدخل إلى التصوف ، القاهرة ، الدار القومية ، بدون تاريخ .
٤٩ ـ نادر ، د . ألبير نصري ، التصوف الاسلامي ، بيروت ، المكتبة الكاثوليكية ، سنة ١٩٦٠ .
٥٠ ـ نكلسون ، رينولد ألّن ، في التصوف الاسلامي وتاريخه ، نقله إلى العربية د . أبو العلا عفيفي ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٩ م .
٥١ ـ النووي ، رياض الصالحين ، بيروت ، دار الفكر ، سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .
٥٢ ـ النيّال ، محمد البهلي ، الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي ، تونس ، مكتبة النجاح ، سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .

الفهرس

هذا الكتاب

إنه محاولة عالم ساءه تباين آراء المسلمين وانقسامهم حول الصوفية والصوفيين ، فأراد أن يبين للناس منشأ « مصطلح الصوفية » وتاريخها ، وأهم مصطلحاتها ، وأثر الثقافات القديمة والأديان السماوية في التصوف في الإسلام ، والعلاقة بين التصوف والفقه .

بحثَ في الدعائم التي اعتمد عليها متصوفة الإسلام ، وبيّن الفارق بين أن يكون التصوف زهداً أو تقوى ، وبين أن يكون انحرافاً وهروباً من مصاعب الحياة ، أو دجلاً على الناس .

وتكلم في مقامات الصوفية ، وأن « لا رهبانية في الإسلام » ، ثم ختم بحثه بدراسة مختصرة عن الإمام الغزالي .

إنه كتاب يكشف حقائق ، وينبّه إلى انحرافات ، فعسى أن يفيد منه الباحثون عن الحقيقة .

الناشر